A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

سعادة الدكتور متى بيش عقراوي
عميد دار المعلمين العالية ببغداد
مع وافر الاحترام
٢٢/٣/٩٤٢

962
N146tA
C.1

الجامعة الازهرية

كلية أصول الدين

تاريخ
مصر الاسلامية

﴿ تأليف ﴾

محمد مبروك نافع

(أستاذ التاريخ بدار العلوم)

والمنتدب لتدريس هذه المادة

بكلية أصول الدين - بتخصص المادة

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

١٣٥٨ - ١٩٣٩

مطبعة شبرا ومكتبتها بجوار جامع الخازندارة تليفون ٥٨٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، وعليه التكلان ، وهو ولى التوفيق

مصر الاسلامية

من لدن الفتح العربى إلى آخر العهد الأموى

الباب الاول

استعراض سريع لتاريخ مصر الرومانية

تمهيد:

لم تقف مصر منذ سقوط الأسرة الثامنة عشرة موقف الهجوم بل وقفت فى الغالب موقف الدفاع ولم تكن انتصارات رمسيس الثانى إلا صد الهجمات الحيثيين الذين كانوا يغبون فى فتح مصر وليس أدل على ذلك من أن رمسيس الثانى لم يستطيع دفع حدود الامبراطورية الثانية إلى أبعد من حدود فلسطين - على أن فلسطين هذه ثارت فى عهد خلفه منفتاح فأخضعها كما أخضع من أغاروا على الدلتا من اللوبيين وسكان جزائر البحر الأبيض - وقد عاد اللوبيون إلى الغارة على مصر فهزمهم رمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين وكان ملوك هذه الأسرة المتأخرون دمى تحركهم أيدى الكهنة الذين انتهى بهم الأمر إلى اقامة أسرة من الكهنة هى الأسرة الحادية والعشرون التى فقدت مصر فى عهدها طور سينا وفلسطين. ثم تعاقب

على الحكم فى مصر أسرات من اللوبيين ، والنوبيين ، والآشوريين وظلت الحرب سجالا بين الأخيرتين حتى انتهى الأمر بأن استقل بمصر بعض أمراء الدلتا فأسسوا الأسرة السادسة والعشرين التى أعاد ملوكها إلى مصر استقلالها وشيئا من مظاهر مجدها القديم ولكنهم كانوا يعتمدون فى حكمهم على الجنود المرتزقة من الاغريق : —

وفى سنة ٥٢٥ ق . م سقطت هذه الأسرة السادسة والعشرون وأصبحت مصر ولاية فارسية على يد قمبيز ـ وتعاقب الفرس والمصريون الغلبة على مصر طوال أيام الأسرات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ حتى إذا كانت سنة ٣٣٢ ق . م يحدثنا التاريخ أن الاسكندر هزم الفرس فى معركة إيسوس الشهيرة ثم دخل مصر فى السنة التالية فأسس مدينة الأسكندرية لتكون عاصمة لملكه بعد أن يتم له فتح العالم ، ولكن القدر عاجله فمات فى بابليون تاركا حكم مصر لأخلافه البطالسة الذين أسسوا فيها دولة جملت بين الثقافتين الاغريقية والمصرية القديمة واستمرت دولتهم يصفها بعض المؤرخين بأنها مصرية فحة حتى سنة ٣١ ق . م وهى السنة التى أصبحت فيها مصر جزء من الامبراطورية الرومانية :

الفتح الروماني لمصر :

مات بطليموس الثالث عشر وترك الملك لولديه بطليموس ١٤ ، ١٥ وأختهما كليوباترا فحكم الأول بالاشتراك مع أخته حينا ولكنه طردها ـ وجاء يوليوس قيصر إلى مصر ليستفيد لروما الناهضة من

هذا النزاع بين الجالسين على العرش فدبرت كليوباترا حيلة للقائه ؛ وقتل بطليموس ١٤ بعد ذلك ، ثم تزوج يوليوس قيصر من كليوباترا وفق الشريعة المصرية فاعتبره المصريون بذلك فرعونا لمصر ، وقد أثمر هذا الزواج ولدا هو بطليموس ١٦ المعروف عند الرومان باسم قيصرون ـ وعاد قيصر إلى روما فتبعته كليوباترا مع طفلها وظلت هناك حتى قتل قيصر ـ وعادت إلى مصر فدبرت قتل أخيها الآخر بطليموس ١٥ ، ثم اتفقت مع انطونيو الذى وقع فى غرامها على أن تتزوج منه وعلى أن يحكما العالم الرومانى باسم قيصريون بن كليوباترا من قيصر ، ولقد شاع فى روما أن أنطونيوس يريد أن يتخذ من الاسكندرية عاصمة للامبراطورية الرومانية بعد زواجه من كليوباترا فقللت هذه الاشاعة بالحب الشعب والجند لأنطونيوس بقدر ماقوت جانب منافسه اكتافيوس ، وكانت نتيجة ذلك الصراع أن دارت رحى معركة حاسمة فى اكتيوم سنة ٣١ ق م بين أسطول اكتافيوس من جهة وأسطول كليو باترا وأنطونيوس من جهة أخرى ، وانسحبت كليو باترا والمعركة فى أمانها إلى مصر فتتبعها أنطونيوس فى مركبه وبذلك دارت الدائرة عليه وانتصر منافسه وأصبح اكتافيوس بذلك سيد العالم الرومانى ، أما انطانيوس فانه انتحر فى الاسكندرية وانتحرت بعده كليوباترا التى فشلت فى اغراء اكتافيوس بجمالها الشخصى — ودخل اكتافيوس بعد ذلك مصر فنادى به أهل الوجه البحرى حاكما عليهم وما هى إلا مدة قليلة حتى أصبحت مصر ولاية رومانية.

٣) إدارة مصر فى عهد الرومان :

لم يغير الفتح الروماني لمصر من إدارتها الداخلية كثيرا فقد كان من سياسة الرومان إذا ضموا إلى بلادهم مستعمرة جديدة أن لا يغيروا من أنظمتها القائمة إلا بقدر ما يتطلبه الظرف الجديد وفوق هذا فان مصر كانت تعتبر من الممتلكات الشخصية لأغسطس « وهو اللقب الذى حصل عليه اكتافيوس بعد أن انفرد بحكم الامبراطورية الرومانية بينما كانت المستعمرات القديمة التى ضمت فى أيام الجمهورية تعامل معاملة مختلفة لأنها كانت تفتتح باسم الدولة بأجمعها وعلى ذلك يمكننا أن نقرر أن الفتح الرومانى لم يغير من مصر إلا الأسرة الحاكمة فقط وكان أوغسطس يعتبر أن مصر من ممتلكاته الخاصة فمنع رجال مجلس الشيوخ فى روما من التدخل فى شئونها وحرم عليهم ولاية شىء من أعمالها وحتى الرحلة اليها فانه حرمها إلا باذن خاص منه ولم يغير شيئا من الأنظمة الداخلية التى وضعها البطالسة ونصب من قبله حاكما على البلاد وكان مقره مدينة الأسكندرية وكان له أن ينتقل إلى البلاد لمختلفة لسماع المظالم والاصلاح بين المتخاصمين وجمع الضرائب والاشراف على الجيوش وعمل الاحصائيات وقسم أوغسطس المملكة الى عدة مديريات يحكم كلا منها مدير ؛ وكان للوالى مساعدان فى أول الأمر فيما يستعين بهم فى الاشراف على إدارة الأقسام الثلاثة الكبرى وهى مصر السفلى ومصر العليا ومصر الوسطى والتغيير الوحيد الذى أدخله أغسطس هو الغاء مجلس مدينة الأسكندرية الذى كان أشبه

ما يكون بحكومة محلية وكان أهل الاسكندرية ومعظمهم من الاغريق يعتبرون أنهم من جنسية الحكام ويجب أن تكون لهم ميزات خاصة فأزاد أوغسطس أن يجردهم من كل الامتيازات التى اكتسبوها أيام البطالسة ويشعرهم أنهم وبقية أفراد الشعب سواء وسوى ما بينهم وبين اليهود فى جميع الحقوق والامتيازات بل لا تعدو الحقيقة إذا قلنا إنه وضع اليهود فى مستوى أرقى قليلا من الأغريق .

الحالة العامة :

ولسنا هنا فى صدد الكلام عن تاريخ الرومان فى مصر إذ أن المجال لا يتسع لذلك إن مصر باستيلاء الرومان عليها دخلت فى عهد خمول سياسى طويل امتد زهاء سبعة قرون كانت مميزاته ما يأتى .

١) إن مصر اعتبرت حقلا لانتاج الحبوب التى كانت تحتاجها روما والتى كانت تغطى الشطر الأكبر من الخارج المفروض عليها :ـ

٢) أن الفنون والمبانى تدهورت فى هذ العصر وفقدت طابعها القديم التى ظل البطالسة محافظين عليه أيام حكمهم للبلاد ـ حقيقة أن الرومان أقاموا فى أول عهدهم بضعة معابد على الطراز المصرى القديم كما شيدوا أجزاء جديدة فى بعض المعابد القديمة مثل معابد مدينة هابو ، وفيلا ، ودندرة ، وغيرها ، ولكنهم سرعان ما أوجدوا تغييرا وأخذوا يشيدون المبانى على الطراز الأغريق أو الرومانى ، وكذلك تدهورت فنون الرسم والتصوير وحل محلها فنون هى خليط من المصرية والأغريقية بدأت فى أول الأمر جميلة إلى حد ما ولكنها سرعان

ما فقدت جمالها وقل انتاجها بسبب ما لحق البلاد من الاضمحلال والانحطاط نتيجة للعسف والاستبداد .

٣) كذلك أهملت الكتابة الهيروغليفية وقد كانت فى عهد البطالسة تسير جنبا لجنب مع الكتابة اليونانية ولكنها فى هذا العصر الرومانى أخذت تتلاشى شيئا فشيئا حتى نسيت بتاتا فى آخره وظلت النقوش والكتابات الهيروغليفية التى تملأ صفحات المعابد والآثار المصرية مجهولة لا يعرفها إنسان ومازالت كذلك إلى القرن التاسع عشر الميلادى إذا استطاع العلماء أن يحلوا رموزها بعد كشف حجر رشيد وفك طلاسمه - على أن هذا لا يمنعنا من أن نقرر أن هزيمة المصريين لم تخضعهم ولم تستطع الدولة الرومانية بقوتها وجبروتها أن تصيرهم رومانا أو ترو منهم على حد التعبير الأوربى فلقد غطى المصريون عار هزيمتهم بأن أخذوا يعتبرون اكتافيوس ومن تلاه من الأباطرة فراعنة لهم على اعتبار أنه كان وريث يوليوس قيصر الذى كان فرعونهم الشرعى بزواجه من كليوباتره - والمدهش فى الأمر أن أباطرة الرومان كانوا يشابهون المصريين فى عقيدتهم هذه فيتوجون باعتبار أنهم مدعوون عن فراعنة مصر ويمنحهم المصريون الألقاب والأسماء المصرية المعتادة كذلك يجب أن نذكر أن الشعب المصرى بأسره ظل على عاداته وأخلاقه القديمة كان لم يحدث حدث ونرى هنا أن نكتفى بعد إذ بينا الحالة العامة فى مصر فى هذا العصر الرومانى أن نأتى على ذكر بعض الحوادث الهامة التى وقعت فى ذلك العصر .

١» فى عهد أوغسطس كان أول حاكم على مصر كورتيليوس جلوس وكان الحاكم الثالث آيليوس جلوس وفى عهده حاولت ملكة أثيوبيا أن تغزو مصر .

٢» فى عهد كاليجولا سنة ٣٧ م حدث اضطهاد لليهود إذ نهب الاغريق الحى الاسرائيلى فى الاسكندرية وذبحوا عددا كبيرا من سكانه ولكن انتهى الأمر باصلاح الامبراطور بين الفريقين .

٣» فى عهد نيرون سنة ٥٥ م بدأت الدعوة المسيحية فى مصر وكان يتولاها القديس مرقص وازدادت العناية بالزراعة بعد كرى الترع والخلجان وكذلك تقدمت التجارة مع الشرق حتى وصلت إلى الصين

٤» فى عهد ثراجان سنة ٩٨ م تمت الأعمال الآتية :

ا ـ حفر خليج من النيل إلى البحر الأحمر لتوسيع التجارة مع الشرق «ب» جدد بناء حصن بابليون الذى يرجح أن الفرس أسسوه ليحمى مخرج القنال من النيل ولا تزال بعض آثاره باقية إلى الآن بالقرب من كنيسة مارى جرجس بمصر القديمة وهو الحصن الذى قاوم العرب مدة طويلة أيام الفتح كما سيأتى «ج» فى أيامه أيضا تم بناء معبد فيلا المعروف باسم قصر آنس الوجود «د» حصل قحط شديد بسبب انخفاض النيل فأرسل سفنا محملة بالغلال من روما إلى الاسكندرية ليقى البلاد شر المجاعة «هـ» وفى عهده حصلت فتنة كبيرة بين اليهود والاغريق قام اليهود فيها بذبح كل ما وصلت اليه أيديهم من الاغريق

الذين التجؤا إلى الأسكندرية وذبحوا كل من كان فيها من اليهود وانتهى الأمر بطرد اليهود الى الصحراء

٥) فى عهد مارك أوريل قامت ثورة داخلية بدأت فى بعض فرق الجيش ثم انتشرت فى جميع أنحاء البلاد ولهذه الثورة أهمية خاصة لأن الثورات فى عهد الرومان كانت قاصرة على السكندريين أو بين بعض الطوائف وبعضها الآخر أما هذه فكانت موجهة ضد الرومان لظلمهم

٦) فى عهد كاراكلا سنة ٢١١ م وكان امبراطورا ضعيفا فسخر منه المصريون وجعلوه موضعا لتهكمانهم فأتي إلى الأسكندرية وجمع عددا كبيرا من الشبان خارج المدينة وقتلهم وألغى الألعاب التى كان يقيمها أهل الاسكندرية وأمر نقسمت الاسكندرية إلى قسمين بجدار أقامها وسطها وحرم على سكان أحد القسمين الاختلاط بالآخر :ـ

٧) وفى عهد جاليينوس سنة ٢١٠ م غزت مصر زينوبيا ملكة تدمر سنة ٦٨ م وساعدها على الغزو بعض قبائل البجه الذين كثيرا ما كانوا تغيرون على مصر من الجنوب وظلت فى مصر سنتين حتى تمكن الرومان من طردها :ـ

وفى عهد دقلديانوس سنة ٢٨٤ م وصل اضطهاد المسيحيين الذى بدأ من العهود السابقة الى أقصاه حتى إن الأقباط يؤرخون تاريخهم من أول ولايته والسبب فى اضطهاد قلديانوس للاقباط يرجع الى أن دقلديانوس رغب الى جميع الرعايا أن يضعوه موضع الألوهية ليضمن بذلك حياته وملكه ولكن مسيحى مصر لم يخضعوا الارادته وقاوموه

أشد المقاومة فاضطهدهم وعذبهم ولم يزدهم ذلك إلا تمسكا بدينهم فذبح منهم عددا عظيما لا نستطيع أن نحدده بالضبط من جميع الطبقات وكان من بين الذين طلب اليهم دقـ ـلديانوس الارتداد عن النصرانية فتاة حسناء تدعى دميانه كانت رئيسة لدير بجهة بلقاس فلم تسمع له فأمر بذبحها بعد أن عذبها ولا يزال قبرها أو مشاهدها يزورها الأقباط الى الآن فى كل عام ـ وعلى الرغم من أن عهد دقلديانوس جدير أن يسمى عهد الشهداء لكثرة ما أريق فيه من الدماء وحل فيه من الاضطهـاد ، إلا أننا يجب للتاريخ أن لا ننسى أنه كان عهد إصلاح أيضا فلقد صد بعض قبائل النوبة والبجة التى كانت تغير على مصر من الجنوب والشرق وأصلح مالية البلاد ونظم ضريبة الغلال فبعد أن كانت ترسل كلها الى روما أبقى قسما منها ليبذر الأرض وقسطا لأهل الاسكندرية ليكون تعويضا لهم عما أصابهم من كثرة الثورات والقلاقل . ولقد اعترف أهل الاسكندرية بفضله هذا حتى أنهم أقاموا له فى وسط مدينتهم عمودا يعرف الآن بعمود السوارى اعترافا بجميله ويعرف هـذا العمود بعمود بمباى وهو خطأ لا أصل له ـ هذا ولو لم تحدث فى آخر عهد دقلديانوس تلك الاضطهادات التى أشرنا اليها لكان عهـده أحسن العهود .

٥) الصراع بين الحكومة والكنيسة :

فى الفصل الماضى أومأنا إلى اضطهاد الدولة الرومانية لمن تنصر فى مصر منذ دخول المسيحية على يد القديس مرقص إلى أن بلغ الاضطهاد

أقصاه فى آخر عهد ديانوس سنة ٣٠٤م المعروف عصره بعصر الشهداء ونريد هنا أن نفتتح فصلا جديدا لعهد قلسطنطين الذى حكم من سنة ٣٢٤م - سنة ٣٣٧ م ذلك لأن فصلا جديدا افتتح فى تاريخ الدولة الرومانية نفسها إذ أعلن قلسطنطين الأكبر أن المسيحية أصبحت دين الدولة الرسمى ولا يهمنا هنا فعل هذا عن إيمان بالعقيدة المسيحية أم خدمة لأغراضه السياسية كما يقول بعض المؤرخين - إنما يهمنا أن نقرر أن المسيحية التى لقيت عنتا فى العهود الماضية أصبح يسارع كثير من الحكام والكبراء والأغنياء الآن إلى اعتناقها تزلفا إلى الامبراطور والقرب منه .

وقبل تنصر قلسطنطين كانت المسيحية قد عمت كل بلاد مصر وكان الانقسام قد بدأ يدب بين الطوائف المسيحية فى مصر نفسها وكان نشأة هذا الانقسام ماحدث بين أثناسيوس وأريوس على علاقة الآب بالدين وخشى الامبراطور أن تتسع هوة الخلاف فأراد أن يحسم النزاع فى أولة فاستدعى اليه اسكندر أسقف الاسكندرية وأريوس فلم يستطع أن يقنع أحدهما الآخر فاستدعى الامبراطور فى سنة ٣٢٥م جمهورا من أساقفة المملكة وعدد كبير من كهنة الشرق وأسقف أو اثنان من الافرنج ليجتمعوا فى نيقية ويضعوا حدا لذلك النزاع وقد احتدم الجدال بين المتخاصمين فى أول المجمع وكان الشماس اثناسيوس يقاوم آراء أريوس بشدة ثم عاد المجلس الوقار وجرى أخذ التصويت لآراء الخصمين فحكم المجلس بتضليل أريوس وبأن يسوع الابن هو إله من

جوهر واحد مع الأب وقرروا أن مبدأ أريوس الذى يقول بأن المسيح والله من طبيعة متشابهة خطأ وإلحاد ثم نفى الامبراطور آريوس وقرر المجمع قانون الايمان المعروف الآن بالنيقى ثم رأى الامبراطور بعد ذلك أن الخلاف تافه لا يحتمل كل الضجة التى قامت حوله فاستدعى آريوس من منفاه وأعاده إلى كنيسته وكلف اثناسيوس الذى كان قد عين أسقفا مكانه باستقباله وطاعته - وعلى الرغم من أن قسطنطين لم يعلن أن المسيحية هى الدين الأوحد للدولة فان العلماء الوثنيين فقدوا عضدهم فقل الاقدام على مدارسهم وأخذت الوثنية تضعف شيئا فشيئا إلى أن كان عصر الامبراطور يثودسيوس الأول سنة ٣٤٩ سنة ٣٩٤م الذى ضرب الوثنية الضربة القاضية فأعلن أن المسيحية هى الدين الأوحد للدولة «واستثنوا من كانوا يهودا» فاضطهد الوثنيون فى مصر وأغلقت معابدهم وكسرت أصنامهم وبعثرت الكتب التى كانت تغص بها مكاتب الاسكندرية والتى كانت تحمل التعاليم الوثنية ثم تحول الكثير من المعابد إلى كنائس بعد أن طمست نقوشها وصورها الوثنية بالطين والكلس ولكن المصريين صابروا على تحنيط موتاهم رغم تحريمه عليهم . وانتدب الامبراطور مائة وخمسين أسقفا للقسطنطينية لتقرير قانون الايمان النيقى فصادقوا عليه ولعنوا الآريوسيين وطردهم من كنائسهم وكان من نتائج ذلك أن عطلت الدراسة فى المدرسة العليا المسيحية التى كانت بالاسكندرية .

وفى عهد ثيودسيوس الثانى الذى حكم من سنة ٤٠٨ - سنة ٤٥٠م

تجدد النزاع بين الأريوسيين وخصومهم وأخذ دورا عنيفا وتشعبت الخصومات وانتهى الأمر بانتصار مبدأ البطريق كيريل الذى كان يقول بأن المسيح والعذراء لهما طبيعة ثنائيـــة مخالفين بذلك رأى كنيسة القسطنطينية التى كان أسقفها فى ذلك الوقت نسطوريوس وقد اضطر الامبراطور أن يحشد مجمعا من أساقفة المملكة فى مدينة ايفوس للحكم فى الخلاف فحكم المجمع بتضليـل نسطوريوس فنفاه الامبراطور الى الصحراء.

وفى عهد مارقيانوس الذى حكم من سنة ٤٥٠-٤٥٧م عادت المنازعات الدينية بين المسيحيين ولكنها أخذت صفة جديدة إذ أن كاهنـا فى القسطنطينية يدعى أوتيخيس أخذ يقول بالطبيعة الواحـدة للمسيح مخالفا لرؤساء القائلين بالطبيعتين فاضطر الامبراطور أن يعقد مجمعا فى خالقدونة سنة ٤٥١م فأصدر المجمع حكما بضلال هذا الكاهن وضلال أسقف الاسكندرية الذى عاضده فى أقواله وكانت مصر إذ ذاك قد تبرأت تماما من مذهب أريوس واتحدت على مذهب الطبيعة الواحدة الذى صار فيما بعد يعرف بالمذهب اليعقوبى فأبت أن تأخذ دينها عن اغريق الأسكندرية وأنكرت قرار مجمع خالقدونة واضطر الامبراطور إلى أن يبعث بجيش ليثبت مركز الأسقف الجديد فأساء المصريون استقباله وتلت ذلك اضطرابات فى البلاد.

وفى عهد جاستنيا الذى حكم من سنة ٥٢٧ - ٥٦٦م استـــدعى الأسقفين من الأسكندرية إلى العاصمة ثم أبعدهما وعين اسقفا واحدا

ليعمل بقانون مجمع خالقدونية على الرغم من إرادة المصريين فاحتملوه بضع سنوات طردوه وطردوا كافة أساقفة المذهب الاغريقى . ولما بلغ الأمير مافعلوه أرسل أيوليناريوس اسقفا وحاكما على الاسكندرية فدخلها على رأس الجند بزيه العسكرى .

ولما وصل إلى الكنيسة خلع لبسه العسكرى ولبس رداء الأسقفية فلم يكد يتكلم حتى حصبه من كان فى الكنيسة ففر وبعد ثلاثة أيام أرسل مناديا بالأسواق يدعو الناس لاستماع قراءة كتاب الامبراطور يوم الأحد وإذ افتتح خطابه يتهددهم بالقتل والنساء بالسبى رجمه الناس كما فعلوا فى القوم الأول وعند ذلك دخلت الجنود الكنيسة شاهرة سيوفها فأخذت تضرب الناس وتقتلهم حتى أسالت دماء غزيرة ولم يجترىء أحد بعد ذلك على مقاومة الأسقف الاغريقى الملكى ومن يوم هذا استتب الأمر لجميع الكهنة الملكيين بصفتهم كهنة وولاة وجمع الامبراطور السلطة الدنيوية والدينية فى يد واحدة ولكن البطارقة الملكانيين كان انصرافهم إلى الشئون الزمنية أكثر من انطرافهم إلى الشئون الدينية بينما اليعقوبيون كان بطريقهم من الرهبان لاشاغل له إلا الدعاء لأم الله والحوارى مرقص . وبينا كنا نرى الملكانيين يثابرون على تلاوة الصلاة القديمة زائدين عليها الشهادة بوحدة جوهر الأب والابن ـ كنا نرى اليعاقبة يرتلون الصلاة الجديدة التى وضعها كيريل وغيره باللغة القبطية ويضيفون عليها الشهادة بالطبيعة الواحدة الالهية كاظمين غيظهم من الاغريق ومحتملين بجلد وصبر ماكان يصبه

الامبراطورية على رءوسهم من غضب واضطهاد وأحس الامبراطور أخيرا بهذا الحيف ورأى أن مملكته يتهددها الفرس فأعرض عن ظلم اليعاقبة بل ويقول بعض المؤرخين إنه اعتنق مذهبهم رغبة فى اكتساب ولائهم - وقصارى القول وحاصله أن حالة مصر فى العهد الأخير من الحكم الرومانى « فى عهد الدولة البيزنطية » كانت حالة بؤس شديد وفقر متقع تمزقها الاضطهادات وتفككها الخصومات الدينية وانقلبت مصر إلى حقل واسع ينبت القمح للرومان والأهلون بمثابة آلات لانباته وقد كادت زراعته أن تكون هى الحرفة الوحيدة وأصبحت الثروة قاصرة على أفراد قلائل بل وربما كانت القرية الواحدة أو القرى المتجمعة بأجمعها فى يد ثرى واحد وكان على المصريين أن يقدموا بيوتهم لجند الامبراطور وفى أكثر من حالة كنا نرى الجند الامبراطورى يحتلون الأديرة والكنائس .

وكانت الضرائب فاحشة وتتناول كل شىء فكانت هناك ضريبة على الأراضى وضريبة على الحيوان وضريبة على البيوت وعلى ما فيها من متاع وكانت جزية الرؤس تفرض على ما بين سن الرابعة عشر والستين وكان يكره الناس على أن يقدموا أموالا يوصف أنها هدية منهم للامبراطور عند توليته وكان على التجار أن يقدموا جزء من أموالهم بما يشبه ضريبة الدخل الآن وكان الداخل إلى المملكة لا بد أن يدفع ضريبة وعلى المنتقل من أقليم إلى آخر أن يدفع ضريبة وكان الوارث لا يحصل على ارثه إلا إذا دفع ضريبة وكان المدين الذى يتأخر

عن دفع دينه لدائنه يدفع غرامة للحكومة وكان لبعض الموظفين الحق فى أن يفرضوا ضرائب خاصة لهم على الناس وكل هذا عدا ما كان يسخر فيه الناس من الأعمال العامة ككرى الترع وإقامة السدود — فلا غرو والاعباء ثقيلة على الناس كما ترى إذ رأينا الكثير منهم يفرون من المدن إلى الأديرة التى شاعت كثيراً فى العصر الرومانى ليتخلصوا من هذه الأعباء الثقال — وحتى المعابد فانها لم تكن أيضا تخلوا من الضرائب يحصلها القساوسة على أنها من النذور أو الزكاة ويدفعون الشطر الأكبر منها للحكومة .

الباب الثانى

مصر قبيل الفتح العربى

١) الصراع من أجل مصر وولاية هرقل :—

ذكرنا فى آخر الباب السابق تاريخ مصر فى عهد الامبراطور جاستينيان ونذكر هنا أن هذا الامبراطور نهض نهضة عظيمة بالدولة الرومانية الشرقية فمد حدودها من بلاد القوقاز والعرب شرقا إلى مضيق جبل طارق غربا حتى لقد خيل إلى الناس أن جاستينيان قد بعث الحياة من جديد فى الدولة الرومانية يشقها الشرقى والغربى ولم يكن نفوذه وفوزه ممتدا فى ميادين الحرب فحسب بل امتد نفوذه أيضا فى ميادين العلوم والفنون وكانت الاسكندرية فى عهده كما كانت منذ استيلاء الرومان على مصر ثالثة مدن الامبراطورية الرومانية وعند ما سقطت الدولة الغربية يصح جدا أن تعتبرها ثانية مدن الدولة

الشرقية وأهم ثغورها من الناحيتين التجارية والمالية ولسنا نعدو الحقيقة في شيء إذا قلنا إن مصالح مصر كانت تتمركز فيها ـ وقد كان سكانها خليطا من أمم مختلفة أشهرهم التجار من المصريين واليونان واليهود ولم يكن هؤلاء على وفاق أبداً بل كانوا يكرهون بعضهم البعض ويتحينون الفرص لايثار الشعب في المدينة وترجع عوامل الشعب إلى سببين أحدهما سياسي والآخر ديني وكانت الحكومة في القسطنطينية تبعث بموظفين بيزنطيين لا ينقطع سوء التفاهم بينهم وبين أهل المدينة . وكان الخلاف الديني على أشده بين القسطنطينية ومصر وكم من مرة حاولت الحكومة أن تبطش بالكنيسة الوطنية في مصر ولكن دون جدوى ولقد كان من بعض نتائج ذلك الطغيان أن ممثلي الديانة المسيحية وممثلي الديانة المصرية القديمة كانوا في أول الأمر على استعداد مستمر لمعارضة الحكومة ـ حقا لقد ازدهرت الحكومة الرومانية في عصر جوستنيان ولكنه كان ازدهارا مؤقتا لم يعده إلى عصر من خلفوه من الاباطره ويجب أن نذكر في هذا الصدد أن الفضل في بقاء الامبراطورية إنما يرجع إلى سوريا ومصر فحسب فهما اللذان كانا يمونان الأمبراطورية ويزودانها بالثروة ولذلك لم يكن عجيبا أن يبذل الأباطرة أقصى ما في جهودهم للاحتفاظ بهما .

وفي مفتتح القرن السابع للميلاد كانت الامبراطورية الرومانية يلوح كأنها تجتاز مرحلة عنيفة بانتقالها من حال الانحطاط والتدهور

إلى حال الانحلال والفناء ويمكن ارجاع ذلك إلى الأسباب الآتية : ـ

١) هجمات البرابرة ٢) الحاجة إلى المال ٣) ضعف الحكومة وعدم قدرتها ٤) ظهور أمم مستقلة كبلاد الغال واسبانيا ٥) انتشار الأوبئة والزلازل ٦) وأخيرا محاولة السكان فى المدن الكبيرة الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة افساد الجو وإفشاء الشر ـ ويمكن أن يضاف إلى هذه العوامل عامل آخر وهو ما كان يبديه الجيش من استعداد للثورة ليخلع امبراطورا بغيضا ويقيم مكانه قائدا من قواد الجند المحبوبين ليحكم العالم الرومانى

وفى نوفمبر سنة ٦٠٢ م ثار الجند بالامبراطور موريق «موريس» وأقاموا مكانه جنديا جاهلا مشوه الخلقة هو ـ فوكاس ـ وبعد مضى سبع سنوات من هذا التاريخ كانت الامبراطورية على أبواب ثورة شاملة وقد بدأت هذه الثورة فى بانطابوليس بأفريقية التى كان يحكمها الوالى هرقل ـ ولما كان هرقل من كبر السن بحيث لا يستطيع أن يتولى قيادة الثورة بنفسه فانه عهد إلى ابنه هرقل والى صديعة نيقتياس القيام بهذه المهمة وقد ساعدهما فى ذلك قريب لفوكاس «صهر له» يدعى كريسبوس كان من الحاقدين عليه ـ وان قصة السباق إلى القسطنطينية برا وبحرا التى ذكرها بعض مؤرخى بيزنطية والتى خلق لها المؤرخ الانجليزى جبون أهمة بذكره اياها فى تاريخه العظيم «قيام وتدهور وسقوط الدولة الرومانية» لتبدو كاذبة فى نظر المؤرخ المحقق ، وتتخلص هذه القصة فى أن هرقل ونيقتياس اتفقا على أن يسير أحدهما بحرا والثانى برا إلى

القسطنطينية فمن سبق الآخر منهما إليها كان جزاؤه أن يفوز بتاج الامبراطورية . وقد ابتدءا فى سباقهما هذا المزعوم ومع كل منهما قوة من الجيش مساوية لما مع الآخر وكان على هرقل أن يجوز البحر الأبيض المتوسط ثم يساحل ببلاد اليونان ومقدونيا وبعد ذلك ينقض على القسطنطينية . أما نيقتياس فكان عليه أن يسير الى مصر وينتزعها من يد فوكاس ثم يسير مخترقا فلسطين وسوريا وقيليقيا وآسيا الصغرى إلى القسطنطينية ـ تقول أن هذه القصة تبدو كاذبة معتمدين فى ذلك على ما كتبه العلامة بتلر الذى اعتمد فى تفنيدها على ما ورد فى كتاب حنا النيقيوسى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع واتصل بكثير من الشيوخ المعمرين الذين شاهدوا بعض الحوادث التى أدت الى سقوط فوكاس .

أما الأسباب الحقيقية لحملة هرقل بحرا إلى اليونان ولحملة نيقتياس برا الى مصر فيمكننا أن نلخصها فيما يلى .

١» أن بانطابوليس لم يكن فى قدرتها أن تمون بالمال والرجال والعدة جيشا يستطيع أن يثير ثورة ناجحة وعلى ذلك كان على كل من القائدين أن يعتمد فى تموين نفسه على البلاد التى يجتازها فى طريقة :

٢» أن سالونيك كانت تعتبر مفتاحا لأى هجوم ناجح على العاصمة وكان لهرقل حزب كبير يعضده فيها فكان بذلك يستطيع أن يضاعف عدد جنده هناك وفوق هذا فان هذه المنطقة كانت تهيمن على الطريق التجارى ما بين القسطنطينية والغرب .

٣» وكان الغرض الأساسى من الاستيلاء على الاسكندرية هو الحصول على ما تخرجه مصر من قمح وخيرات واستعانته بما فى ميناء الاسكندرية من اسطول تجارى أو حربى وقد استطاع هرقل أن يجند جيشا صغيرا ويبعث به تحت قيادة نيقيتاس عن طريق الساحل إلى مريوط التى استطاع بالرشوة أن يكسب حاكمها فى جانبه .

وكان على فوكاس أن يحتفظ بمصر ويتمسك بها مهما كلفه الأمر ومن أجل ذلك بعث بمدد إلى الأسكندرية ومنوف وإتريب بينما كلف يونوسوس بالاسراع إلى مصر على رأس من معه من الجند - وفى هذه الاثناء كانت مدينة كابسين » على الساحل إلى الغرب من الأسكندرية » قد سلمت لنيقيتاس دون مقاومة ولكنه وجد نفسه غير قادر على الهجوم على مدينة الأسكندرية مباشرة - والظاهر أن حاكم الاسكندرية قد دفعه الخوف من غضب السكان إلى الخروج لملاقاة نيقيتاس فدارت بينهما حرب انتهت بانتصار نيقيتاس انتصارا مبينا قتل فيه القائد الامبراطورى ودخل الجيش المدينة من باب القمر فلم يلق بعد ذلك كيدا يذكر وكانت النتيجة أن نيقيتاس نجح فى الشطر الأول من خطته إذ بذلك استولى على مخازن القمح وما فى المدينة من أموال وعلى السفائن كما استولى على جزيرة فاروس وحصنها « جزيرة فاروس كما قال قيصر من قبل هى أحد مفتاحى مصر أما المفتاح الآخر فهو الفرما - وكان على نيقيتاس بعد ذلك أن يستولى على بلاد

الدلتا وقد رحبت بمقدمه كل تلك البلاد عدا مدينتى سمنود وأثريب .

أما بونوسس فانه فى ذلك الوقت كان قد وصل إلى الفرما ثم واصل سيره مسرعا إلى الجنوب الغربى لينقذ مدينة أثريب فنجح فى عمله ثم استمر فى أحد فروع النيل من أثريب إلى منوف حيث استطاع أن يهزم قائدا من قواد نيقيتاس هزيمة ساحقة ولى بعدها كل أنصار نيقيتاس صوب الاسكندرية وبذلك استطاع الامبراطور أن يسترد قبضته ويعيد نفوذه فى الدلتا وكان على بونوسس أن يهبط فى أحد فروع النيل إلى الاسكندرية ليحاصر تلك المدينة العاصية ولقد قامت فى وجه بونوسس مشكلة عويصة وهى كيف يستطيع أن يستولى على مدينة كهذه محصنة دون أن يكون معه أسطول ولقد فشلت أولى هجماته على المدينة أما نيقيتاس فقد خرج اليه من الباب الشرقى « باب الشمس » واستطاع أن يشق جيش بونوسوس إلى قسمين وهنا حلت الهزيمة به ولما رأى نيقيتاس أن أكثر المنهزمين يسرعون إلى الشمال تعقبهم بجماعة من جنود السودان وحصرهم ثم قتلهم فلم يبق منهم أحدا أما بونوسوس فانه فر بمن بقى معه من الجند وصعد النهر إلى مدينة نيقيوس ومن هناك اتخذ العدة لهجوم على الاسكندرية من ناحيتها الغربية عن طريق ترعة الثعبان ولكن نيقيتاس أفشل خطته بأن حطم القناطر التى تعلو الترعة وجعل سير السفن فيها مستحيلا عند ذلك فكر بونوسوس فى أن يغتال نيقيتاس ولكن الذى عهد اليه بالأمر أفشى السر ففشلت خطته الثانية وبعد محاولات أخرى توجت

بالفشل فر بونوسوس إلى افرما ثم ركب البحر إلى فلسطين ومنها سار فى طريقه تشيعه لعنات الناس على ما أبدى من قسوة إلى أن لحق بسيده فوكاس

أما نيقيتاس فقد فتح منوف ونيقيوس وكان فتحها إيذانا للمدن الأخرى ولسائر القواد بأن يسلموا ولم يكد يأتى خريف ٦١٠م حتى كان هرقل سيد مصر بأجمعها ولم يرد ذكر فى هذا الصراع لحصن بابليون والظاهر أنه سلم دون مقاومة أو عن طريق الخيانة

فى هذه الأثناء كان هرقل قد أبحر إلى شاطىء اليونان ومر فى أسطوله بين جزائرها أن وصل إلى تساليا ومكث هناك عاما أو بعض عام يعد جيشا وأسطولا ويشعل بدسائسه نار الفتنة فى العاصمة وفى سبتمبر سنة ٦١٠م كان هرقل قد استكمل كل عدته بينما لم يكن فوكاس قد فعل شيئا ثم تلت ذلك معركة برية واحدة لم تستمر وقتا طويلا الا وقد دمرت قوى الامبراطور تدميرا تاما ووقع فوكاس أسيرا فعذبوه ثم قتلوه اذ قطعوا أعضاءه فقطعت يداه أولا ثم بتر ذراعاه وتلا ذلك تشويه آخر ثم قطعت رأسه بعد ذلك وعرضت فى أكبر طرق المدينة أما سائر جسمه فقد سحب على الأرض الى ميدان السباق ثم الى سوق الثيران حيث أحرق فى الموضع الذى أحرق فيه يونسوس قبيل ذلك « قال بتلر لعمرى ان تلك المثلة لم تكن من عيب فى هرقل ولكنها كانت من عيب العصر وما كان معروفا فيه من العادات »

وفى يوم ٥ أكتوبر سنة ٦١٠م ألبس هرقل التاج وأعلن امبراطورا للدولة الرومانية .

وأصبح نيقيتاس الآن حاكما على مصر فبذل كل ما فى وسعه أن يعيد للحكم المدني الرومانى نظامه وأن يعيد للجيش الرومانى كيانه ولكنه لم يستطع أن يوفق بين المصريين وكان أكثر ما يحتاج اليه هو المال لادارة شئون الحكومة ولكنه لم يفعل شيئا لتحسين حال المصريين أو لتنمية مواردهم وكانت الحكومة تشرف على الأسكندرية ومنف وبابليون وسلسلة من الحصون تمتد من الفرما إلى اسوان ولقد نجح نيقيتاس فى حفظ الأسكندرية بما أعفى الناس فيه من الضرائب وبما منحهم من الامتيازات ـ وليس من شك فى أن هرقل كان حريصا كل الحرص على أن يستميل قلوب أقباط مصر وكان نيقيتاس فى الوقت عينه يرى لزاما عليه أن يجزيهم على ما قدموه من خدمة ولقد بذل نيقيتاس مساعدة كبرى فى التوفيق بين الطوائف الدينية فكان للأقباط بطريقهم الخاص ـ ولم يكن المطران الملكانى الذى عينه هرقل بناء على مشورة نيقيتاس أقل عطفا منه على الأقباط حتى لقد نال اعجاب اليعاقبة فبجلوه فى حياته وعظموه بعد مماته وذلك هو حنا الرحوم أو المحسن أطلق عليه ذلك اللقب لكثرة ما كان يأتيه من أعمال البر والاحسان ولقد كان من خطة هرقل فى مبدأ الأمر أن يوفق بين المذهبين العظيمين اللذين اقتسما أتباع الدين المسيحى فى مصر ولكن العداوة بينهما وإن خمدت كانت تتقد فى الخفاء وينذلع

منها اللهب إذا ما هب عليها أضعف ريح من الفتنه ورأت الحكومة أن من الحكمة التفريق بين رئيسى الدين حتى لا يبقى المتنافسان معا فى العاصمة

والآن وقد المعنا الماما بسيطا عن الحالة فى مصر فى عهد هرقل فانا نخرج الآن إلى الأفق السياسى الخارجى لنرى ما كانت تتجاوب به الانحاء الشرقية من جليل الحوادث التى تردد صداها على ضفاف النيل والتى قدر لها أن تهز أركان الحكم البيزنطى فى مصر من أساسها وتمهد السبيل للفتح العربى وإذا كان لا بد أن نعرف أثر النزاع بين الرومان والفرس فى مصر فلنلم الماما غير مفصل بأدواره السابقة .

٢) بين الفرس والروم :

لم تضع الحرب أوزارها بين الفرس والروم زهاء سبعة قرون. ففى هذه الأثناء كان الفرس قد أجتاحوا معظم أرمنيا وبعثوا بالجند إلى الشام والقسطنطينية وقد أتاح ضعف فوكاس للفرس فرصة غزو الامبراطورية الرومانية وبينما كان هرقل يتوج فى القسطنطينية كانت انطاكية قد وقعت فى أيدى الفرس وبعد ذلك بأربع سنوات سقطت بيت المقدس فى أيديهم أيضا اذ أرسل القائد الفارسى إلى بيت المقدس يدعوها إلى التسليم فأسلم اليهود المدينة إلى قواد الفرس بعد أن غلبوا المسيحيين من أهل المدينة على أمرهم . وبعد دخول الفرس المدن قامت ثورة فيها فصب الفرس جام غضبهم على المدينة فحطموا أسوارها بمساعدة اليهود وقتلوا من أهل المدينة عددا ضخما قدره بعض المؤرخين بسبعة

وخمسين ألف عدا من أسروا وعدتهم فى بعض الأقوال خمسة وثلاثين ألف وبعد أن قضى الفرس فى المدينة واحدا وعشرين يوما فى القتل والنهب خرجوا من المدينة وأوقدوا فيها النيران بعد أن أخذوا الصليب المقدس وشيئا لا حصر له من الآنية المقدسة من الذهب والفضة .

وقد هاجر كثير من السكان بعد هـــذه الحوادث وولى معظم الهاربين وجوههم شطر الأسكندرية « ولعل انتصار الفرس على الروم فى بيت المقدس هو الذى نزلت فيـه الآية الشريفة « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع ســنين » وقد خففت السلطات من بلاء هؤلاء الفارين من اليهود والنصارى وكان كرم البطريك حنا الرحوم ذا أثر واضح غير أنه زاد البلاء اشتدادا أن كان فيض النيل فى ذلك الصيف فيضا ضعيفا يهدد البلاد بالمجاعة .

وبعد اتمام فتح الشام ولى الفرس وجوههم شطر مصر فبدأوا غزوها فى ربيع سنة ٦١٦ وسرعان ما اجتاحوا بلاد الدلتا مخربين مدمرين كما هى عادتهم حتى وصلوا إلى الاسكندرية وتهيؤا لحصارها وكان أهـل الأسكندرية فى ذلك الوقت مختلفين على بعضهم فكان الأقباط وأهل الشام يكرهون الحكومة الرومانية واليهود يكرهون المسيحيين من أى مذهب ولم يذكر أحد من كل هؤلاء أن الواجب يقضى عليهم أن يتحدوا فى هذا الظرف العصيب ليدفعوا عن البلد التى تأويهم شر الغزو بل على العكس نرى أن الخيانة لعبت دورها وأسلمت المدينـــة إلى الفرس وقد كانت الأسكندرية محصنة تحصينا تاما ولكن المينـــاء

وما يحيط به لم يكن عليه من يحرسه وبذلك وجد رجل يسمى بطرس كان غريبا يطلب العلم فى الأسكندرية قيل أنه فارسى وقيل أنه عربى وقيل أنه يهودى فتسلل من الباب الذى كان يلى البحر والذى كان مفتوحا أبدا لكى تدخل منه السفن الآتية من البحر فوجد بطرس فى هذا الباب فرصته وتسلل إلى المعسكر الفارسى ليلا وسمح لجماعة من جند الفرس أن يدخلوا المينا متنكرين فى زى صيادى السمك فتمكنوا بذلك فى الصباح التالى أن يصلوا إلى أحد أبواب المدينة وأن يفتحوه لبقية جموع الفرس رافعة لوية النصر وهاتفة باسم كسرى

أما نيقتياس والبطريق حنا الرحوم فالظاهر أنهما فرا قبل أن تقع الاسكندرية فى يد الفرس سنة ٦١٧ أما الأول فقد فر إلى القسطنطينية وذهب الثانى إلى قبرص التى ظل بها حتى مات وقد هجر نيقيتاس المدينة لأنه كان يعرف أن من المستحيل الدفاع عنها . فلقد كان هذا المصير التى وصلت اليه متوقعا فقد أخذ من جندها عدد كبير ليدافع عن بلاد أخرى من الدولة أو ليدافع عن بيزنطة ذاتها وفوق ذلك فان الفرس كانوا قد قطعوا القمح الذى يصل اليها من ريف مصر ليصدر إلى الخارج فلما طالت مدة الحصار خشى الناس الجوع ولم يرحب القبط بالفرس لكثرة ما قتلوا وسلبوا بعد دخولهم ولكن اليهود رحبوا بهم ، ثم تلت ذلك فترة عامل الفرس فيها أهل الأسكندرية معاملة حسنة وان كانوا قد أثقلوا عليهم فى الضرائب ، ونقلوا الكثير إلى بلاد فارس

وبعد فتح الأسكندرية انتشر الفرس إلى الجنوب فواصلوا غزوهم حتى أسوان فقد استغرق الفتح بأجمعه ثلاث سنوات أما السنوات العشر التالية التى مكثوها فى مصر فكانت أعوام سلام . ولم يكره الفرس أهل مصر على عبادة النار بل ساروا بعد أن استتب لهم الأمر على سنة التسامح فى أمور الدين ولقد فرض الفرس على الكنائس جزية تؤديها ولكن هذا ليس مجزوما به ويجوز أنهم استصفوا ما كان للكنائس الملكية الطريدة من أوقاف وأرزاق أما الأبنية الأهلية فقد عاملوها معاملة أكثر رفقا مما عاملوا به الأبنية فى سوريا - ولعل بعد مصر عن فارس وصعوبة النقل فى الصحرا قد حماها من ذلك التخريب الشنيع .

فى هذه الأشياء كان هرقل قد فقد كل ممتلكاته إلا العاصمة فقد كان التتر الهون تهجم على ممتلكاته فى الشمال وكان الفرس قد وصلوا إلى خلقدونية على الساحل الآسيوى للبسفور تجاه القسطنطينية وحاول هرقل فى أول الأمر أن يشترى الصلح بأى ثمن ثم حاول ثانيا أن ينقل العاصمة إلى قرطاجة وظل مدة طويلة فى ضعف وتردد حتى استقر به الأمر إلى أن يضرب آخر سهم فى وجه الفرس فاما نجاح أبدا واما فشل أبدا ومهد لتصميمه هذا بأن حاول أن يعقد صلحا مع القبائل المتبربرة وأن يثير الشعب فى بلاد فارس نفسها ثم أن يرفع جيشا كبيرا ولم ينجح الا فى هذه المحاولة الأخيرة ولكن قامت فى سبيل تنفيذها مشكلة وهى : أين يدرب ذلك الجيش ؟

ولم يكن الفرس فى ذلك الوقت ولا فى أى يوم من ايام تاريخهم بحارة مهرة ولو أنهم استطاعوا أن يكونوا لهم أسطولا لما حال دون سقوط الأسكندرية فى أيديهم حائل لقد فتحوا الأسكندرية وفتحوا خلقدونة فلم يستفيدوا من الميناء أو السفن هنا أو هناك ووقف البحر كأنه حائل ضخم يحول دون حركتهم لانهم كانوا يجهلون أهمية القوة البحرية وكانت نتيجة ذلك المباشرة أن هرقل بعد أن أذاب متـــاع الكنائس الذهبي والفضى ثم صكه نقودا بحر من العاصمة فى يوم شم النسيم (عيد الفصح سنة ٦٢٢) ونزل بأسوس واستولى على الممر الذى يفصل بين الشام وقيلقيا « وكانت غزوة فيليقيا هذه كأنها الوتد الذى يشق قلب الارض التى كان الفرس يملكونها فيما بين النيل والبسفور ولم تأت سنة ٦٢٧ حتى كان الفرس قد انسحبوا من هنا ومن هناك حتى فبراير سنة ٦٢٨ تكللت أعمال الحرب بفتح دستاجرد وهى مدينة تبعد عن المدائن ثمانين ميلا نحو الشمال وفى الرابع والعشرين من ذلك الشهر فر كسرى هاربا هربا مهينا ولقى حتفه على يد خلفه شيرويه وأحرق قصر كسرى فلم يبق منه شىء وذهب طعمه للحريق كل ماكان به من التحف ، والكنوز التى يقصر عنها الوصف ثم أطلق من كان فى السجون من أسرى مصر والشام وأعيد الصليب المقدس فى صندوقه الى هرقل لم يمسسه سوء .

وبذلك انقذت الامبراطورية ولكن الى حين

وحج الامبراطور فى العام التالى سنة ٦٢٩ ليعيد رفع الصليب

المقدس وفى أثناء رحلته هذه أتاه رسول فى حمص أوفى ادسامن قبل النبى عليه الصلاة والسلام يدعو فيه هرقل إلى الاسلام ولكن بتلر يرجح أن الكتاب وصل قبل ذلك فى حياة الملك الأعظم كسرى وفى الطريق إلى بيت المقدس أيضا جاءه وفد من اليهود ذكروا ما أتوا من الجرائم فى المسيحيين وطلبوا منه العفو فمن عليهم بالعهـــد وكان من حرص اليهود أن أخذوا منه بذلك العهد كتابه

ولكن منذ ذلك الوقت الذى وصل فيـه هرقل إلى قمة النصر بدأ نجمه يأفل فأولا نراه يسح بمذبحة اليهود بعد ما أعطاهم عهدا بالأمان وثانيا نراه أخذ يحاول محاولة فاشلة لتوحيد الكنائس وتجنب أسباب النزاع وقد حددت سنة ٦٣١ للتوفيق بين المـذاهب المختلفة فى مصر وكان فى مصر فى ذلك الوقت بطريرك وطنى محبوب فى الشعب وذو نفوذ عظيم هو البطريق بنيامين الذى بذل جهدا كبيرا فى اصلاح الكنيسة القبطية ورفع المستوى الخلقى وكان هرقل يقصد إلى التوفيق بين حزبى الكنيسة اليعاقبة والملكانيين وكانت صورة التوفيق التى أقرها تقضى بأن يمتنع الناس عن الخوض فى كنه طبيعـــة المسيح وعما إذا كانت له صفة واحدة أو صفتان ولكن عليهم أن يشهدوا أن له ارادة واحدة أو قضاءا واحـدا ولما دعى قيرس مطران فاسيس فى بلاد القوقاز إلى مذهبه الجديد وجد منه قبولا فولاه بطرقة الدين فى الاسكندرية وأمره أن يجمع بين المذهبين القبطى والملكانى فى المذهب الموفق الذى ابتدعته حكمة المجلس الامبراطورى

والظاهر أن قيرس لم يحاول محاولة جدية فى التوفيق بين المصريين وانما خيرهم بين الخضوع للرأى الجديد والاضطهاد ويساورنا الشك فى أن الشعب المصرى كان يفهم أن هناك محاولة للتوفيق يدلنا على ذلك أن بنيامين لم يستشر فى الأمر وأنه فى عقب وصول قيرس فى سنة ٦٣١ ثم تلت ذلك فترة الاضطهاد المعروفة باسم الاضطهاد الأعظم والتى استمرت زهاء عشر سنوات حتى سنة ٦٤١ لاقى فيها الأقباط بلاء شديدا ونضرب لك أمثلة من ذلك الاضطهاد لتعرف إلى أى حد وصل ذكر بتلر أن ميناس أخا بنيامين كان ممن عذبوا ثم قتل غرقا وكان تعذيبه بأن أفدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه حتى سال دهنه من جانبيه إلى الارض كما ذكر سويرس ولكنه لم يتزعزع عن ايمانه نخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء بالرمل وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطىء ثم عرضوا عليه ثلاث مرات أن يؤمن بما أقره مجلس خلقدونيا فيفلت من الموت فرفض فى كل مرة فرموا به فى البحر فمات غرقا هذا مثل من أمثلة كثيرة ذكرها بتلر أدناه السجن وأقصاها التعذيب والضرب ، وكان السعى حثيثا غير منقطع وراء بنيامين ولكنهم لم يعثروا عليه إذ كان يهرب متنقلا من دير إلى آخر على أن فريقا من القبط لم يستطيعوا الهجرة والهرب فخضعوا لما شاء قيرس منهم ـ وكان من بين من دخلوا فى المذهب الجديد جماعة من الأساقفة منهم اسقف نيقيوس وأسقف الفيوم وليس عجيبا أن يخضع هؤلاء لما طلب قيرس فقد كانت كل قوى البلاد تحت يده

وكانت كتائب جيش الرومان تروح وتغدو فى الاسكندرية وغيرها رهن اشارته ذلك لأن هرقل ارتكب خطأ كبيرا بأن ولى قيرس مع بطرقة الاسكندرية الروحية حكم مصر الزمينة أيضا وكانت النتيجة أن أصبحت قوى الكنيسة وبجانبها قوى الدولة من جند وموظفين تحت تصرفه ورهن اشارته ، وقد زاد عدد الجند والموظفين بعد الفتح الفارسى زيادة كبيرة فكان قيرس يلجأ إلى حاميات البلاد للاستعانة بها بعد ان لم يثمر اضطهاده للبطارقة خارج الاسكندرية ـ ولقد فكر جماعة من الأقباط فى التآمر بحياة قيرس ولكن المؤامرة كشفت وأوقع بالمتآمرين شتى ألوان العذاب من قتل وتقطيع أيد وغير ذلك . دون أن يكون هناك استجواب أو شبه القضاء — ولقد أثار هذا الاضطهاد مسألة قديمة كانت نائمة وهى مسألة الدين أو الوطنية ولكن الأقباط اختاروا الأولى لأن الثانية كانت مستحيلة فى ذلك الجو الذى كانوا يعيشون فيه ولا شك أنه قد ترامى إلى أهل مصر من الشام وغيرها أن المسلمين يدعون للمسيحيين أمور دينهم ولعله قد خطر بقلوبهم أن الخضوع للمسلمين قد يخفف بعض آلامهم وأن نير المسلمين قد يكون أخف حملا من نير الملك الأصيل فى دين المسيح وهو هرقل ـ قال بتلر ـ « إن سيف قيرس قد قطع آخر ما كان يربطهم إلى الدولة الرومانية من أسباب الولاء وذلك لكثرة مالاقوه فى السنوات العشر من الظلم الذى نزل بهم إلى حضيض من الشقاء لا أمل معه قرأوا فى مجىء المسلمين نازل أرسلها الله لينتقم لهم بها

من ظالميهم » وناقش بتلر بعد ذلك المسئولية فى ذلك وعلى من تقع أعلى هرقل وكانت نواياه فى القضاء على اختلاف المذاهب بنيله أم على قيرس الذى لجأ إلى العسف بادىء ذى بدء ولم يلجأ إلى وسيلة سواه وانتهى به الأمر إلى تحميل الاثنين عبء هذه المسئولية وإلى أنهما بعملهما هذا مهد السبيل للفتح العربي .

الباب الثالث

الفتح العربى

١) مراجعنا فى تاريخ ذلك الفتح :

١) لسنا نعدو جانب الحقيقة إذا قررنا أن تاريخ الفتح العربى لمصر هو أشق موضوع يتعرض له الكاتب فى التاريخ وهو أقل مواضيع التاريخ الاسلامى مادة وأكثرها اختلاطا واضطرابا وخلافا وتناقضا بين المؤرخين بل لعل هذه الفترة من تاريخ مصر العام أكثر ظلاما وحلكة من فترات الشطر الأخير من تاريخ مصر القديم وهى تكاد تضل فى غموضها واضطرابها إلى الفترة التى سبقت غزو الهكسوس وحكمهم لمصر - ولو أن الأمر كان يقف عند حد الأخبار القليلة التى وصلت إلينا عن تاريخ الفتح لهان الأمر ولكن الخلاف الواسع بين المصادر الاسلامية فى حوادث الفتح وتواريخه والخلاف بين المصادر الاسلامية والمصادر اليونانية من ناحية والمصادر القبطية من ناحية أخرى يجعل المعالج لهذا التاريخ يسير على غير هدى كالضارب فى

صحراء واسعة فى ليل شديد الحلكة . والمصادر التى نحاول الاعتماد عليها فى تدوين هذه الفترة تنقسم الى أربعة أقسام :

ا ـ المراجع الاسلامية

ب ـ المراجع الرومانية

جـ ـ المراجع القبطية

د ـ المراجع الحديثة

وسنبدى فى الفقرات التالية رأينا فى كل من هذه المراجع ثم نعالج بعد ذلك تاريخ الفتح فى ضوء مايمكن أن يوفق بين هذه المتناقضات ونخرج بنا مما يشبه الخرافة الكاذبة الى التاريخ الحقيق .

ا ـ فأما المراجع الاسلامية فانه مما يحز فى النفس أن نرى التحقيق الدقيق والتفصيل الشامل يوجهه المؤرخون المسلمون الى تاريخ الفتح الفارسى بينما فتوح الروم وبخاصة فتح مصر لايلقى عشر معشار تلك العناية فابن الأثير مثلا وهو من عمدنا فى التاريخ الاسلامى يذكر قصة الفتح المصرى فى صحيفتين اثنتين بينما يفرد للقادسية وأيامها الصفحات الطوال ، وهو لم يعن حتى فى هذا الجزء القليل الذى كتبه عن فتح مصر ، إلا بتمحيص نقطة واحدة هى أن مصر فتحت قبل عام الرمادة ، لأن عمرا حمل الطعام فى بحر القلزم من مصر الى المدينة وأما ماعدا ذلك فانك تلقى خلطا فى الأسماء والتواريخ . ولم يزد الطبرى على ما كتبه من بعده ابن الأثير إلا قليلا مما لاطائل تحته : ولعل

أول كتاب أفرد فى تاريخ مصر هو كتاب ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ المسمى فتوح مصر وأعمالها وهو كتاب سغير التاريخ الحقيقى فيه يضيع الى جانب الخرافة الكثيرة .

وهناك كتاب اسمه فتوح مصر والاسكندرية ينسب خطأ الى الواقدى المتوفى سنة ٨٢٣ م وقد طبعته مطبعة ليدن وهو فى مجموعة سلسلة من الخلط و خرافات .

وأما فتوح البلدان للبلاذرى المتوفى سنة ٨٩٢ م فهو أغزر مادة وقد عقد المؤلف فيه لتاريخ الفتح فصلين ـ أحدهما عنوانه فتوح مصر والمغرب ـ والآخر عنوانه فتح الاسكندرية ، وقد اعتمدنا على بعض ماكتبه :

ولابن عبد الحكم المتوفى سنة ٨٧٠ م كتاب لم نطلع عليه ولكننا قرأنا الكثير مما نقل عنه فى المقريزى والسيوطى وغيرهما . وقد نقل عن هذا المؤرخ كثير من المؤرخين الأجانب أيضا وابن عبد الحكم يخلط فى كتابه هذا قصص الخيال بأخبار التاريخ .

وما قيل عن هؤلاء المؤرخين الاسلاميين يمكن أن يقال عن غيرهم كابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ وكالمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ وياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ وأبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٥ هـ وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٧ م فان كل هؤلاء لم يعنوا بتمحيص تاريخ مصر بل اكتفى المتأخر منهم بأن نقل عن المتقدم على أن هناك جماعة من المؤرخين المسلمين المتأخرين قد عنوا عناية أكثر بالتاريخ المصرى

ونخص بالذكر من هؤلاء المقريزى المتوفى سنة ١٤٤١م فان كتابه الخطط والآثار أثر نفيس من آثار العمل المتصل فى جمع الأخبار وإن كنا لانستطيع أن نصف عملة بالدقة والتحرى .

ونذكر أيضا أبا المحاسن المشهور بابن تغربردى المتوفى سنة ١٤٦٩م فان كتابه المسمى النجوم الزاهرة الذى يقع فى أربعة عشر جزءا كتاب قيم فى التاريخ المصرى بلا شك ولكن الجزء الأول منه الذى يهمنا الآن لأنه يعالج تاريخ مصر من أول الفتح الى سنة ١٤٦ هـ لايعدو فى كتابته ماذكره المقريزى وغيره وإنما يمتاز بأنه يذكر حوادث التاريخ الاسلامى المعاصرة لسنوات حكم الولاة العرب .

وكتاب الولاة والقضاة للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ لايتعرض لذكر الفتح وحوادثه ، إنما يؤرخ للولاة مبتدئا بعمرو بن العاص ، وكتابته فى هذا الموضوع قليلة جدا اذا جردناه من الاسناد .

وللسيوطى المتوفى سنة ١٥٠٥م كتاب عنوانه حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة اعتمد فى معظم ما كتبه وبخاصة فى الفترة التى نعالجها على ما ورد فى المقريزى .

تلك هى أمهات الكتب الاسلامية التى وقعت فى أيدينا قبل معالجة هذا الموضوع وليس فى واحد منها غناء ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن ما فيها من الخلط فى التواريخ والحوادث والأشخاص قد زاد الأمر تعقيدا فى نظرنا .

ب – المراجع الرومانيـة :

لم يخدم مؤرخو الروم تاريخ الفتح الشامى والمصرى كما خدم مؤرخو الفرس تاريخ الفتح الفارسى ولسنا نجد تعليلا لهـذا إلا أن الروم قد انقطع ما بينهم وبين مستعمراتهم فى الشام ومصر بعـد طرد العرب لهم فلم يريدوا أن يدونوا تاريخ فترة غير مجيدة فى تاريخهم على عكس الفرس الذين وإن كانوا قد فقـــدوا استقلالهم إلا أنهم استعاضوا به الاسلام الذى اعتنقوه وقامت لهم فيما بعد دول فيـه ، وأشهر مؤرخى الروم الذين يعتمد عليهم المؤرخون المحدثون هو تيوفانيس الذى تتبع فى كتاباته تاريخ الفتوح الاسلامية وإن كان قد أخطـأ فى فهم بعض الحوادث .

جـ – المراجع القبطية :

وأشهر المؤرخين القبط على الاطلاق هو يوحنا النيقيوسى وهو أسقف قبطى يرجح أنه عاصر زمن الفتح ودون تاريخه فى أواخر القرن السابع وقد كتب بعض ذلك التاريخ باللغة القبطيـة والبعض الآخر باللغة اليونانية والظاهر أنه قد نقل إلى العربية فى زمن متقدم ومن هذه النسخة العربية وجدت ترجمة ايتوبية ترجمت إلى بعض اللغات الأوربية ، وهذه الترجمة ذات أهمية عظيمة وقد اعتمد عليهـا المؤرخ بتلر فى تحقيق كثير من الحوادث والمتصفح لهـذه الترجمة يرى أن يوحنا لم يكن يعنى بتعاقب الحوادث ، وهى تخالف فى كثير من

الحوادث ما نقل عنها فيما بعد فى المراجع العربية على أن كل هذا لا يفقد هذه البرديات قيمتها .

وقد حصل أيضا على عدة برديات باللغة القبطية تتضمن حياة بعض البطارقة الذين عاشوا قبيل الفتح وبعده وهى تفيدنا كثيراً فى التاريخ لحوادث ذلك العصر .

د – المراجع الحديثة :

ونتنقل الآن إلى الكلام عن المراجع الحديثة وهى قسمان المراجع العربية ، والمراجع الأوربية :

وأشهر المراجع العربية هو تاريخ مصر الحديث لجورج زيدان وعلى الرغم من أن الأستاذ جورجى زيدان كتب تحت عنوان كتابه من الفتح الاسلامى إلى الآن الا أنه لم يفصل الكلام التفصيل الذى كان ينتظر على الفتح وكان اعتماده إلى حد كبير على ما ورد فى المراجع العربية وقد أدى به ذلك إلى الوقوع فى بعض الهنات التاريخية التى أثبتت التحريات الحديثة خطأها على أن الجزء الذى كتبه يعتبر إلى حد كبير استعراضا سريعا لا بأس به لتاريخ الفتح الاسلامى .

ولم يتعرض الأستاذ الخضرى بك فى محاضراته لتاريخ الأمم الاسلامية لفتح مصر اذ قال انه يرجىء تفاصيل فتحها الى الوقت الذى يتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقا .

وقد وضع الدكتور حسن ابراهيم رسالة مفصلة عن تاريخ عمرو ابن العاص تناول فيها بطبيعة الحال الفتح العربى لمصر بعد أن شرح

حالة مصر قبله ووصف الفتح وما تلاه من الحوادث الى آخر ولاية عمرو الثانية .

ولا نذكر غير هذا من الكتب الحديثة العربية ممن أفرد للكلام عن الفتح العربي إلا ما كان لتاريخ الاسلام العام والفتح العربى فيه فصلا من الفصول . أما المراجع الأوربية فأهمها على الأطلاق الكتاب الذى ألفه الدكتور الفرد بتلر فى سنة ١٩٠٢ م وجعل عنوانه : (الفتح العربى لمصر والسنوات الثلاثين الأخيرة للحكم الروماني) . وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية منذ ست سنوات الأستاذ محمد فريد أبو حديد ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقد سد هذا الكتاب بتأليفه وتعريبه فراغا كان واسعا فى تاريخ العرب وأكمل النقص الذى خلفه المؤرخون المسلمون فى تاريخ مصر بوجه خاص . وقد عانى بتلر فى وضع كتابه هذا مشقة كبيرة وما زال يحقق ويدقق ويستخلص الحقائق من بين مئات المراجع العربية والأجنبية حتى كون فكرته عن موضوع الفتح العربى التى ضمنها هذا السفر وخالف فيها جل ما استقرت عليه الآراء فى موضوع الفتح العربي ويمتاز عمله بأن ضم إلى الكتاب بضعة ملاحق ليجلو بها الحقيقة عن بعض المسائل الخلافية التى تشعبت فيها أوجه النظر كشخصية المقوقس وتواريخ الفتح الفارسى والعربي وغيرها والبطارقة وغير ذلك من المسائل الشديدة الاتصال بتاريخ الفتح :

وسنعتمد إلى حد كبير فى بحثنا هذا على ما كتبه ذاك المستشرق العظيم :

ومن الكتب الهامة فى تاريخ مصر الاسلامية الكتاب الذى كتبه الأستاذ استانلى لين بول وجعل عنوانه (تاريخ مصر فى العصور الوسطى) وعالج فيه تاريخ مصر من أول الفتح العربى إلى آخر عصر المماليك الشراكسة سنة ١٥١٧ . ولا يهمنا من هذا الكتاب إلا الفصل الأول الذى عالج فيه تاريخ الفتح والفصل الثاني الذى عقده لمصر من لدن الفتح إلى بدء عصر أحمد بن طولون .

وسنعتمد أيضا فى بعض ما نذكره فى هذا التاريخ على ما ورد فى كتب المستشرقين التى نخص بالذكر فيها .

١ ـ كتاب الخلافة للسير وليم موير

٢ ـ كتاب الدولة العربية وسقوطها للعلامة ولهوزن

٣ ـ تاريخ العرب للاستاذ فليب حطى . وخلاصة تاريخ العرب للعلامة سيديو .

٤ ـ وما ورد عن الفتح العربى لمصر فى تاريخ المؤرخين للعالم ، وتاريخ كنبرج للعصور الوسطى وكل هؤلاء المؤرخون الأجانب مختلفون فى وجهات نظرهم مما لا داعى للاطالة فيه الآن اكتفاء بوروده فى موضعه من هذا البحث .

٢) التفكير فى فتح مصر

يرجع التفكير فى فتح مصر الى عمرو بن العاص الذى تكاد تجمع

الروايات على زيارته لمصر فى الجاهلية ولسنا نعرف فى أى سنة تم ذلك ولكن السيوطى وغيره يذكر نقلا عن ابن عبد الحكم أن عمرا قدم الى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش وإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسيح وكان عمرو يرعى ابله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه وكان الى جانب الشماس حيث نام حفرة خرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد انجاه الله منها. فقال لعمرو: ما هذه؟ فأخبره الخبر. فقبل رأس عمرو وسأله عن سبب مجيئه قال: قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل من تجارتنا فقال الشماس وكم ترجو أن تصيب من تجارتك قال ما اشتراى به بعيرا قال الشماس: كم دية أحدكم بينكم؟ قال عمرو مائة من الابل قال الشماس كم تكون من الدنانير قال عمرو ألف دينار - ووعد الشماس عمرا بأن يعطيه ديتين إن هو صحبه إلى الاسكندرية وقبل عمرو العرض بعد أن أخبر أصحابه بأنه سيغيب عنهم شهرا - ووصل عمرو إلى الأسكندرية فرأى من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه - قال المسعودى ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيها ملوكهم وأشرافهم ولهم أكرة من ذهب يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم وفيما اختبروا من تلك

الأكرة أن من وقعت فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم فلما قدم عمرو الأسكندرية أكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه أياه وجاس عمرو والشماس إياه فى ذلك المجلس حيث يترامون بالأكرة وهم يتلقونها بأكمامهم فرمى بها رجل فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فتعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا هذا لا يكون أبدا ثم مشى الشماس فى أهل الأسكندرية وأعلمهم أن عمرا أحياه مرارين وأنه قد ضمن له ألفى دينار وسألهم أن يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها إلى عمرو فانطلق هو والاعرابى الذى صحبه فى هذه الرحلة وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا واكرمهما حتى عادا إلى فلسطين فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا ـ اه بتصرف عن السيوطى .

تلك هى القصة التى رواها باختلاف قليل مؤرخو العرب وهى إن صحت فى شىء فهى لم تصح إلا فى زيارة عمرو لمصر أما أكرة الذهب وما قيل إن الملوك كانوا يترامون بها فهى واضحة البطلان ولم يشر إليها أحد من مؤرخى الروم .

وكان عمرو بن العاص أحد القواد الأربعة الذين سيرهم الخليفة أبو بكر لفتح الشام وقد كلف بفتح فلسطين وقد وفق فى الاستيلاء على معظم بلادها إلى بلدة بيت المقدس نفسها والرملة وقيصريه فانها استعصت عليه ثم تجمع القواد فى اليرموك وبعد النصر عزم عمرو على معاودة

الكرة على بيت المقدس فضرب الحصار عليها بعد أن هرب قائد حاميتها أرطبور إلى مصر فاستمر بطريق المدينة فى المقاومة حتى أعيته الحيل وطال الحصار فرغب فى الصلح على شريطة أن يكون المتولى لعقده الخليفة عمر بن الخطاب نفسه فكتب اليه عمرو بذلك وسار الخليفة إلى الشام بعد أن بعث للقواد أن يقابلوه عند الجابية وجاء عمر فتسلم المدينة وكان تسليمها إيذانا بتسلم فلسطين كلها ولم يرد عمرو بعد سقوط قيصريه وخضوع فلسطين أن يظل بلا عمل حتى لاتخمد شهرته ـ ومثله فى ذلك مثل نابليون بونابرت فى اقتراحه على حكومة الادارة فتح مصر بعد انتصاراته فى إيطاليا ـ اتصل عمرو بالخليفة أثناء وجوده بفلسطين وأخذ يلحف عليه فى ضرورة فتح مصر والخليفة يبدى ترددا .

٣» مبررات الفتح

سواء أكان عمرو مخلصا فى اقتراحه هذا على الخليفة يقصد مصلحة المسلمين أم كان يقصد خدمة أغراضه الشخصية فمما لا شك فيه أن فتح مصر كان ضروريا للأسباب الآتية ـ

١» أن هذا الفتح كان طبيعيا لأن مصر هى الامتداد الجنوبى لفلسطين .

٢» أنه لصيانة المستعمرات الجديدة لابد من فتح مصر خشية أن يتخذها الرومان قاعدة لاسترداد فلسطين والشام .

٣» أن الاستيلاء على ما فى مصر من سفن وثغور يساعد على

إخضاع مدن الشام الشمالية الواقعة على البحر التى كانت لا تزال تقاوم الفتح العربى .

٤» أن هـذا الفتح سهـل ولا يكلف العرب أرواحا ولا أموالا كثيرة لأن مصر غير محصنة ولأن الشعب المصرى إن لم يساعـد الغزاة فلن يقاومهم بسبب كراهيته للروم لاضطهادهم .

٥» أن غنى مصر وبخاصة ما فيها من غلال يغرى بالفتح ويعوض ما يحتمل فى سبيله من خسائر

٦» أن هذا الفتح يمنع الجنود الرومانية الآبقـة من الشـام من من اللجوء إلى مصر

من ذلك وغيره يتبين أن فكرة فتح مصر كانت فكرة سليمة بصرف النظر عن بواعثها على أن هـذه الفكرة وعرة رغم مبرراتها التى ذكرناها لم تلق تعضيـدا صريحا من الخليفة ولعـل ذلك يرجع الى ما يأتى :—

١» أن الخليفة كان يعتقد أن أقـدام العرب لم تثبت بعد فى الأقاليم المفتوحة فكان يخشى إذا بعثرت قوتهم فوق مساحة واسعـة أن تكون النتيجة ضعف العرب

٢» أن الخليفه ربما كان يعتقد أن الفتح لن يكون بالسهولة التى صورها عمرو وأن مصر على غنـاها المشهور لا يمكن أن تترك دون تحصين كما يقول

٣» أنه ربما كان يتشكك فى نوايا عمرو

٤» وأخيرا يمكننا أن نقول إن معلومات الخليفة عن السياسة الخارجية وبخاصة لدولة الروم كانت أقل من معلومات عمرو.

من أجل ذلك تحير الخليفة وقد تساوت أمامه كفة المسألة فلا هو يريد أن يحرم المسلمين الخير الذى يصوره عمرو ولا هو يريد أن يعرضهم للتهلكة كما كان يصور له وجدانه، ولم يكن بجوار الخليفة نفر من الصحابة يستشيرهم فى المعضلة وأخيرا تحت الحاح عمرو والحافه سمح له وهو فى طريقه الى المدينة أن يتحرك الى مصر على رأس أربعة آلاف رجل أو ثلاثة آلاف وخمسمائة كما ورد فى بعض الروايات ولكى يرضى الخليفة ضميره الحساس علق السماح بالغزو على وصول كتاب منه الى عمرو بالرأى النهائى

٤« بدىء الغزو وفتح الفرما »

لم يكد يظفر عمرو بموافقة الخليفة المعلقة على الغزو حتى صمم على التحرك الى مصر من فلسطين فى آخر السنة الثامنة عشرة للهجرة فى طريقه الى مصر مجتازا المنطقة المعتادة التى كانت تتحرك دائما فيها الجيوش الداخلة الى مصر أو الخارجة منها - ولم يكن الجيش الذى خرج به عمرو كبيرا إذ كان عددهم دون الاربعة آلاف والخروج بمثل هذا العدد لفتح بلاد كمصر يعتبر مخاطرة بلا شك فى نظر الرجل الحصيف وانضم الى عمرو قبل ان يدخل مصر جماعات من البدو لكى يكون لهم نصيب فى الغنيمة ولم يكد يشرف على حدود مصر حتى كانت عدة جيشه أربعة آلاف ولعل هذا يفسر لنا

الخلاف فى عدد جيش عمرو بين ٣٥٠٠ : ٤٠٠٠ آلاف فان الذين خرجوا معه كانوا ٣٥٠٠ رجلا والذين انضموا اليه من البدو كانوا نصف ألف وقد استغرق هذا بلا شك وقتا كان الخليفة قد وصل فيه إلى المدينة وأفضى إلى الصحابة بأذنه لعمرو بالسير إلى مصر فأقر بعضهم الأمر ولكن عثمان بن عفان ذكر للخليفة أن عمرا فيه جرأة واقدام وحب للامارة وأنه يخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا فندم عمر بن الخطاب على اذنه لعمرو وكتب اليه « إن أدركك كتابى قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك وإن كنت دخلت فامض لوقتك »

وينكر بعض المؤرخين قصة هذا الكتاب ويرى بعض المستشرقين أنها مخترعة ويستدلون على ذلك بأن وصول عمر إلى المدينة وإرساله الكتاب إلى عمرو وهو على حدود مصر يستغرق وقتا أكثر من الوقت الذى يستنفده عمرو من غزة إلى العريش ولكن هذا الاعتراض يزول إذا عرفنا أن الخليفة لم يقم بفلسطين طويلا إلا ريثما عقد المعاهدة مع أهل بيت المقدس وأن عمرا لم يتحرك إلى مصر إلا بعد فتح قيصرية .

ومهما يكن من أمر فان كتاب الخليفة أدرك عمرا وهو برفح ودلته فطنته على أن الخليفة قد يأمره بالعودة فراوغ رسول الخليفة ولم يتسلم الكتاب منه إلا فى منتصف المسافة فيما بين رفح والعريش وسأل عن المكان فعرف أنه من أرض مصر وعند ذلك تلقى رسول

الخليفة وفض كتابه ثم أخذ يواصل السير إلى أن وصل إلى العريش في ١٠ ذى الحجة سنة ١٨ هـ الموافقة ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ م فضرب حولها حصارا لم تلبث أن سلمت بعده - ثم غادر العرب العريش وما حولها من بساتين النخيل ويمموا شطر الغرب فى طريقهم إلى الفرما وكانت الطريق بعد العريش تبعد عن البحر قليلا وفيها بعض العيون والقرى التى طالما شاهدت منذ فجر التاريخ فى الحقب الخالية خروج الغزاة ودخولهم كما شاهدت مقدم ابراهيم ويوسف ويعقوب وأسرة المسيح والتجار والحجاج وكان آخر ما شهدته هذه الطريق جيوش الفرس فى غزوتهم الأخيرة لمصر.

وليس ثمت شك فى أن قيرس كان يعلم أن الهجوم على مصر لا بد سيتلوا الهجوم على الشام وقد كان فى طوقه أن يحشد عشرة آلاف من الجنود الرومانية ليجعلهم فى حصن الفرما التى هى أول حصن هام يعترض الفاتح لمصر ولكن قيرس لم يفعل شيئا أكثر من أنه حفر خندقا حول جزء من حصن بابليون واصلاح قليل من الحصون الأخرى - ولقد حدا هذا الاهمال من جانب قيرس باعتباره الحاكم المدنى لمصر إلى ماقاله بعض المؤرخين «مثل تيوفانيس اليوناني» إلى القول بأن قيرس كان يفكر فى ذلك الوقت فى عقد محالفة مع العرب ضد الرومان يضمن بها لنفسه حكم الاسكندرية فى ظل الحكم العربي.

انحدر العرب من هذا الطريق التاريخى إلى الشمال الغربى إلى مدينة الفرما «اسمها بالقبطية فرمون» «وباليونانية بلوز» أو بلوزين

وهى مدينة تبعد عن البحر نحو ميل ونصف وعلى مقربة منها يصب فى البحر أحد فروع النيل القديمة المسمى بالفرع البلوزى وتعتبر هذه المدينة مفتاح مصر من الشرق وقد كان فى مكنة الروم أن يقاوموا العرب على قلة عددهم وعلى افتقارهم إلى آلات الحصار التى لم يكونوا يحملون منها شيئا لو أنهم كانوا قد قووا حامية المدينة أو رمموا حصونها التى دكها الفرس أثناء غزوتهم الأخيرة ولكن شيئا من ذلك لم يحدث وكان هذا الاهمال أول غلطة كبرى ارتكبها الروم من بين سلسلة الأخطاء التى سنشير الى كل منها فى مكانها من هذا الفتح - وصل العرب الى الفرما فى أواخر شهر ديسمبر سنة ٦٣٩م فضربوا حصارا حولها استمر هذا الحصار شهرا فى بعض الروايات وشهرين فى رواية أخرى - ولسنا نعلم عدد من كان من الجنود فى المدينة ولكن بعض الروايات تذكر أن هؤلاء الجنود كانوا يخرجون لمقاتلة العرب خارج الأسوار ثم يفرون الى المدينة وفى احدى المرات تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن يقتحموه وكان ذلك فى النصف الأول من شهر يناير سنة ٦٤٠م وهذا يقابل أوائل العام التاسع عشر للهجرة ، ولعل سقوط المدينة بهذه الطريقة التى ذكرناها هو الذى حدا ببعض المؤرخين كالمقريزى وابن تغربردى بأن يقولوا ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا لعمرو أعوانا وأن أسقفا للقبط يقال له أبو ميامين «لعله يقصد بنيامين» كتب الى قبط مصر يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع وأمرهم

بتلقى عمرو وكل ذلك بطبيعة الحال غير صحيح إذ لو أن القبط ساعدوا العرب لما هدم العرب حصون المدينة وأحرقوا سفنها وبسقوط الفرما فى أيدى العرب أصبح الطريق الذى يربطهم بفلسطين وبلاد العرب آمنا وضمن لهم سبيل الرجوع اذا نزلت بهم هزيمة ولم يترك عمرو حامية فى الفرما اكتفاء بتهديم الأسوار كما بينا .

« ٥ — فتح شرق الدلتا »

بعد الاستيلاء على الفرما تحرك عمرو إلى الجنوب الغربي حتى وصل إلى موضع فى برزخ السويس مكانه مدينة القنطرة الحالى ولزم العرب جانب الصحراء متجهين إلى ناحية مدينة الصالحية ومخلفين فى ذلك أكثر من عداهم من فاتحى مصر الذين كانوا يسلكون سبيل العرب ليسقطوا مدن الدلتا الشمالية وكانت فكرة عمرو من سلوك ذلك السبيل أن تكون الصحراء حصنه الذى يلجأ إليه وقت الخطر تنفيذا للأوامر التى كان الخليفة قد أصدرها للقواد عند فتح العراق والشام هذا من جهة ومن جهة أخرى لكى يتجنب عبور القنوات وفروع النيل إذ كان جيشه كله من الفرسان ولم يكن عندهم من وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار شيء وما زال يضرب فى الصحراء مخترقا وادى الطميلات عند التل الكبير حتى أشرف على مدينة بلبيس وهناك خرجت طلائع الروم ترقب مجيء العرب من الصحراء ولا تدافعهم الا بالأمر الخفيف حتى أشرفوا على بلبيس وكان جيش عمرو قد انضم اليه عدد من يد وهذه الصحراء الشرقية وهناك

فى ظاهر هذه المدينة خرج اليهم أربطبون « الذى يسميه العرب أرطبون » والذى كان حاكما على بيت المقدس وفر عند حصارها كما أشرنا إلى ذلك آنفا وصمم على مناجزتهم مناجزة أخيرة انتهت بفشله وانتصار العرب وكانت قد جرت بينهم وبين القبط بعض المفاوضات للتسليم ولكنها لم تسفر عن نجاح — وقد قتل من جيش العرب عدد ليس بالقليل ولكن خسارة الروم كانت أشد إذ تذكر بعض الروايات أنهم خسروا فى بلبيس ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير — وقبل أن ننتقل من بلبيس يجب أن نشير هنا إلى قصة أرمانوسة ابنة المقوقس فقد ذكر بعض المؤرخين كابن اسحق والواقدى قصتها وأنها أسرت فى بلبيس فاحب عمرو ملاطفة المقوقس استجلابا لوده فسير اليه ابنته مكرمة فى جميع مالها فسر أبوها كثيرا بقدومها — قال بتلر — ولا حاجة بى إلى اضاعة الوقت فى تفنيد هذه القصة فان مجرد العلم بان المقوقس كان بطريق الاسكندرية كاف لضحدها ـ وقد كتب أحد القسس المسمى بوتشر روايته التاريخية المسماة أرمانوسة المصريه وذكر فيها أن أرمانوسة كانت فى طريقها إلى قيصرية لتزف إلى قسطنطين ابن هرقل فلما علمت أن قيصرية حاصرها العرب عادت إلى مصر بمن معها من الخدم والمال فما وصلت بلبيس حتى جاءتها جيوش عمرو وحاصرتها الخ .

بعد سقوط بلبيس لم يبق بين العرب وبين رأس الدلتا إلا مسيرة

يوم فسار عمرو جنوبا ومر بمدينة هليوبوليس حتى وصل إلى قرية صغيرة على النيل تقع على الشمال من حصن بابليون تسمى أم دنين - وقد ذكر المقريزى أنها كانت المقس وموضع المقس اليوم هو الموضع الذى فيه حديقة الازبكية وكان يمر به خليج الخان - هنا أدرك الروم الخطر وقد رأوا جنود العرب تريد أن تفتح هذا الحصن الذى يجاوره مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة وكان أمير الجيوش الرومانية فى مصر رجل عاجز فى الحرب يسمى تيودور لم يتبين الخطر إلا فى هذا الوقت وكان يظن أن الفتح العربى لا يعدوا أن يكون غارة من غارات البدو - وكانت فى أم دنين حامية قوية ولذلك كان فى استطاعة الروم أن يخرجوا من حصن بابليون فى الجنوب ليقاوموا جيش العرب ويعودوا إلى الحصن آمنين وراء أسواره - مضت على العرب بضعة أسابيع فى مناوشات وقتال بسيط مع الروم لم يؤذ فيه الروم كثيرا ولكن اجهض فيه العرب وصاروا فى قلة لا تمكنهم من إتمام الفتح الذى جاءوا من أجله عند ذلك كتب عمرو إلى الخليفة يستنجده وعده بامداده بعد أن شرح له الموقف تماما ولكن ماذا عساه أن يصنع حتى يجىء المدد ويفكر فى حصار بابليون - الحصار المثمر لقد كانت كل الظروف الآن فى جانب الروم وكان فى استطاعتهم أن يقضوا على جيش عمرو وأن يوقفوا هذا الفتح العربى نهائيا ولكنهم لم يفعلوا بل تركوا عمرو بن العاص يعبر نهر النيل من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية ليشغل جنوده ويحصل على مئونة

لجنده وعلوفة لخيله ريثما يأتيه المدد الذى بعث يطلبه من الخليفة وهنا نستطيع أن نعتبر هذا السماح لعمرو بالعبور إلى الضفة الغربية للنيل الغلطة الثانية الكبرى التى ارتكبها الرومان ـ ولم يتم هذا العبور بطبيعة الحال إلا بعد أن نجح العرب فى الاستيلاء على أم دنين والاستفادة بما فيها من مراكب بعد أن كافهم ذلك عناء شديدا كان الروم يظنون أنه سيستنفد كل قواهم فيرجعوا من حيث أتوا .

معركة هليوبوليس

عبر عمرو النهر عند أم دنين كما بينا ثم أخذ يسلك سبيله إلى الجنوب على ضفة النيل الغربية فمر فى طريقه بمدينة منفيس التى كانت عاصمة مصرية قديمة ثم اضمحل شأنها بعد تأسيس مدينة الاسكندرية ولسنا نعلم عن الطريق الذى سلكوه إلى الفيوم شيئا والراجح لدينا أن عمرا كان لا يقصد من عمله هذا فتحا إنما كان يقصد إشغال جنده ريثما يصل المدد لحصار حصن بابليون ـ ولقد حاول حاكم اقليم الفيوم أن يصد تقدم العرب فوضع الجنود عند ثغور الفيوم التى يدخل إلى الاقليم منها وأقام ربيئة عند اللاهونى ليرصد العدو وقد أرسل إليه سرية من الفرسان والرماة لم يقو العرب على مقاومتها فعدلوا إلى جانب الصحراء وجعلوا يستاقون ما لاقوا من النعم وما زالوا كذلك حتى بلغوا مدينة البهنسة ففتحوها عنوة وذكر يوحنا النيقيوسى أنهم قتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال ولكن هذا يخالف ما نعرفه عن

العرب ـ واستطاع عمرو أن يوقع بقائد الجند فى الفيوم عند قرية ابويط من قرى بنى سويف فقتله ومن معه جميعا ولما بلغت أخبار هذه النكبة القائد العام تيودور أعول وبكى وصمم على أن يحشد جيشا أكثر مما حشد فى بابليون وبعث بجزء منها إلى البهنسة ليحارب العرب ولكنها لم تنجح فى القضاء على قوتهم على الرغم من أن العرب قد فشلوا فى فتح مدينة الفيوم.

وأحس عمرو أن الوقت قد حان لعودته إلى الضفة الشرقية ولعله قد ترامت إليه أخبار بقرب وصول المدد الذى بعث به الخليفة لقد كان مسير عمرو إلى الفيوم فى أوائل شهر مايو سنة ٦٤٠ م وغنم العرب فى الأسابيع التى قضوها هناك غنما كثيرا بقدر ما خسر الروم فى تلك الأسابيع التى أضاعوها ضياعا وهناك فى أوائل شهر يونيه سنة ٦٤٠ م وصلت أول فرقة من الأمداد الذى بعث بها الخليفة وكانت عدتها أربعة آلاف على رأسهم الزبير بن العوام بن عمة النبى ثم جاءت على إثرها كتيبتان كل منهما تقرت من أربعة آلاف رجل فكان جميع من جاء من الأمداد نحو اثنى عشر ألفا وعسكر الكل على مقربة من مدينة هليوبوليس « عين شمس » وكانت ثالثة الاخطاء الكبرى التى ارتكبها الرومان أن سمحوا لعمرو بالعبور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية والاتصال بهذا المدد الذى رفع جيشه إلى أربعة أمثاله وكان فى استطاعة تيودور أن يحول دون عبور عمرو وبخاصة لأنهم كانوا قد استردوا أم دنين. وقد كان

فى طوق الروم أيضا أن يعطلوا عمرا إذا لم يستطيعوا القضاء عليه فى الضفة الغربية حتى يرتفع النيل فيتعذر عليه العبور ولكنه عبر إما عنوة أو على غرة منهم من موضع من الشمال من أم دنين ، وأن يتجه صوب عين شمس التى عرف أن المدد يعسكر فيها .

ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر هنا أن الهدف الأعلى لهذه الجيوش العربية كان حصن بابليون ولكن يجب أن نذكر أن المدد لم يستحضروا معهم آلات حصار وعلى ذلك انحصر تفكير العرب فى محاولة استدراج الروم إلى خارج أسوار حصن بابليون وآنس تيودور من نفسه القوة فخرج بمن معه من الجند ، وسار بهم نحو عين شمس التى كان معسكر العرب على بضعة أميال منها وكان معه ثيودسيوس حاكم اقليم الفيوم وأنستاسيوس حاكم الاسكندرية ، وكانا على الخيالة ، أما بقية الجمع وكانوا رجالة أو حملة رماح وأسرعت ربيئة العرب فحملت إلى عمرو ما عزمت عليه الروم فسار هو من هليوبوليس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم ، وأرسل تحت جنح الليل كتيبتين احداهما إلى أم دنين والأخرى إلى مكان واقع إلى الشرق فى الموضع الذى تقع فيه قلعة القاهرة اليوم وأوصاهما عمرو بأن ينقضوا على مؤخرة جيش الروم إذا سنحت لهم الفرصه ، ولم يكن عند الروم علم بمكيدة عمرو بل رأوا أنه كان يسير إليهم فى جمعه آتيا من هليوبوليس للقائهم ويرجح لدينا أن هذا اللقاء تم فى منتصف الطريق بين المعسكرين أو فى مكان ما من العباسية الحالية ، وكان كل من الفريقين يعلم أن هذه الموقعة

يتحدد مكانه من مصر تماما ولذلك قاتل كل قتال المستميت وبينما المعركة فى أشدها إذا بإحدى الكتيبتين وكان عليها خارجة بن حذافة تنقض من ناحية التل انتضاض العاصفة على مؤخرة جيش الروم فوقع الاضطراب فى صفوفهم وعموا وجوههم شطر أم دنين ، وهناك خرجت لهم الكتيبة الثانية فأحيط بهم من كل مكان ، وانقلبت الفوضى إلى كارثة لا حد لها ، وأخذوا يولون الأدباء ليفلتوا من سيوف العرب البتارة ، واستطاع قليل منهم أن يدرك الحصن جريا على الأرض كما تمكن فريق آخر أكثر من هؤلاء من الاندفاع إلى النهر وركوب بعض الزوارق التى حملتهم إلى الحصن ، ولسنا فى حاجة إلى أن نقول إن عددا لا يستهان به من الروم قتل فى هذه المعركة ، وعلى أثر ذلك أعاد العرب الاستيلاء على أم دنين فقتلوا معظم من كان فيها ولم يفلت الا ثلمائة ، وهؤلاء لجأوا الى حصن بابليون وغلقوا وراءهم الأبواب ولكن عندما اتصل بهم ما أصاب الروم من قتل دب فى قلوبهم الفزع وركبوا النهر الى نيقيوس ـ وليس فى الأخبار ذكر لعدد القتلى من الجانبين ، ولكن من المعروف أن القائد العام تيودور والحاكمين انستاسيوس وثيودسيوس أفلتا من القتل وقد تجمع من بقى من الروم بعد المعركة فى حصن بابليون فكونوا حامية تستطيع الدفاع عنه ولكن نتائج ذلك الانتصار أفادت العرب فائدة كبيرة فقد أصبحت مدينة مصر التى كانت حتى هذه الساعة يحميها الجيش الرومانى فى بابليون تحت رحمتهم «ومدينة مصر وكان يطلق عليها اسم منفيس فى بعض

الأحيان تقع الى الجنوب من حصن بابليون قبالة مدينة منفيس القديمة الواقعة على الضفة الغربية للنيل وكانت هذه الأخيرة أطلالا منذ اهملت بعد تأسيس الاسكندرية.

بذلك أصبح العرب يملكون المنطقة الواقعة الى شمال الحصن والمنطقة الواقعة جنوبه فنقلوا معسكرهم من هليوبوليس الى الناحية الشمالية والناحية الشرقية من الحصن وسط الحدائق والكنائس فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم الفسطاط وقد أصبح جيش العرب كافيا لحصار بابليون بعد إذ دمر الجيش الرومانى كقوة محاربة ولم تبق منهم إلا الفلول التى لاذت إلى أسوار الحصن وهامت على وجهها مذعورة فى بلاد الدلتا. وكذلك كان لانتصار العرب نتيجة أخرى فى الفيوم إذ هجرها حاميتها وخرج دومنتيونوس الى أبويط ومن ثم ركب النهر الى نيقيوس دون أن يخبر أهل الفيوم باخلائه له ووصلت أخبار هرب دومنتيوس إلى عمرو فبعث كتيبة احتلت الفيوم وقتلت من أهلها خلقا كثيرا وهنا نقف لنقرر أن الرومان ارتكبوا الغلطة الرابعة الكبرى فى سماحهم لعمرو بالهيمنة على النيل قبل موسم الفيضان وكانت سيادة العرب على النهر ذات أثر فعال فى انتصاراتهم ولو أن العرب كانوا مهرة فى ركوب البحار لاستطاعوا أن يتعقبوا بنجاح جماهير الآبقين من الروم الذين كانوا يفرون من الجنوب ليعتصموا بحصن نيقيوس واكتفى عمرو بأن أمر نجائب الخيل بأن تجوس خلال البلاد بعد وقعة عين شمس كما أمر حاكم دلاص أن يمد المسلمين بالسفن

لينتقلوا بها من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي وبعد أن تم لعمرو فتح الفيوم فى النصف الثانى من شهر يوليو سنة ٦٤٠ م بدأ يبعث بعوثه إلى فتح الدلتا فى شهر أغسطس سنة ٦٤٠ م قبل أن يحول فيضان النيل بينه وبين ذلك وبدأ الاقباط يساعدون المسلمين فأقاموا لهم قنطرة على الترعة عند قليوب وتمكن العرب من فتح إثريب ومنوف ولكن مدينة نيقيوس « على الفرع الغربى للنيل » استعصت على العرب لأنها كانت ذات حصون قوية وأسوار منيعة وكان فتحها يتطلب أن يحاصرها العرب حصارا طويلا إذ أن العرب اضطروا إلى العودة إلى حصن بابليون قبل أن يعم الفيضان . وقد ألقت حركات العرب فى الدلتا وفى مصر الوسطى الرعب فى نفوس الناس فترك عدد كبير منهم أرضهم وبيوتهم وما فيها من زرع ومتاع وخرجوا أفواجا إلى الاسكندرية ولم يلحق بهم عمرو للسبب الذى بيناه وهو علو الماء علوا سريعا فى آخر شهر أغسطس فأصبحت البلاد لا يمكن السير فيها وكان الظرف يتطلب أن يضرب عمرو حصاره حول حصن بابليون فاذا أخضعه كان من السهل عليه أن يأخذ ما شاء من الجنود ويضرب أى حصار مهما طال على أى مدينة فى الدلتا وعلى الاسكندرية ذاتها

وقبل أن نتكلم على حصن بابليون وحصاره يجدر بنا أن نصف مدينة هليوبوليس التى عقدنا هذا الفصل لوقعتها .

هليوبوليس لفظ يونانى معناه مدينة الشمس وقد أطلقه اليونان على المدينة أون التى كانت عاصمة المقاطعة الثالثة عشرة من مقاطعات

مصر السفلى وكانت تقع على مقربة من مدينة المطرية الحديثة وكانت فى العصور الفرعونية مقر عبادة الاله رع أو إله الشمس ولا شك أن اليونان أخذوا ذلك المعنى فجعلوا اسمها عندهم هليوبوليس كما احتفظ العرب بهذا المعنى أيضا فجعلوا اسم الموضع عين شمس وقد كان فى هذه المدينة فى العصور الفرعونية جامعة كبيرة لدراسة الدين المصرى القديم والفلسفة ظلت مزدهرة عدة قرون . وقد روى أنه فى عهد الأسرة العشرين كان طلبة العلم والأساتذة فى جامعة هليوبوليس يعدون بالآلاف وتلاقى العلم فيها جماعة من فلاسفة اليونان نخص بالذكر منهم أفلاطون ولما زار استرابون المدينة فى سنة ٢٤ ق م كان الناس يدلونه على المواضع التى كان يتلاقى فيها أفلاطون العلم من قبل وكان بالمدينة معبد ضخم لم تبق من آثاره الآن إلا مسلة واحدة ترجع إلى عهد السيرتسن الأول فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وبدأ تدهور المدينة عند ما نقل بطليموس الثانى الكهنة والعلماء منها إلى الاسكندرية وكانت هليوبوليس تضم جالية كبيرة من اليهود وفى التوراة أن يوسف عليه السلام تزوج من ابنة فوطيفار أحد كهنة عين شمس وقد غيرت صروف الزمان المدينة وجرت الحضارات والحروب ذيل العفاء على أكثر معابدها وتماثيلها ولما أتى العرب لم يكن باقيا من مجدها القديم إلا قليل من الأسوار المهدمة ، وتماثيل لأبى الهول قد دفن نصفها ، تحت الثرى ، وعمود واحد هو القائم إلى الآن والمعروف باسم مسلة عين شمس .

«٨» حصن بابليون

تدل الآثار التى بقيت من حصن بابليون على أن هذا الحصن لاقى من عوامل التخريب فى السنوات الأولى من هذا القرن أكثر مما لاقى فى طوال القرون التى سبقته — ولسنا نعلم على وجه التحقيق مبدأ بناء هـذا الحصن ولكن الرأى الراجح لدى المؤرخين أنه بنى على يد الامبراطور الرومانى تراجان فى العام المتمم للمائه من الميلاد والظاهر أن تراجان بنى هذا الحصن على انقاض حصن قديم يذكر بعض المؤرخين أنه بنى فى عهد نابوخذ ناصر (بختنصر) عند غزوه لمصر ولقد ذكر استرابول الذى زار مصر فى القرن الاول قبل الميلاد أنه رأى حصن قويا نهد من الصخر على الضفة الشرقية للنيل وقال إن السبب فى تسميته ترجع إلى جماعة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه — وروى ديودور الصقلى أن ملك مصر جاء بجماعة من أسرى بابل واسكنهم فى قصر فأطلقوا على القصر اسم المدينة التى جاءوا منها — وذكر المؤرخ يوسفيوس اليهودى أن الحصن لم يبن الا فى أيام غزوة الفرس لمصر فى حكم الملك قمبز — وذكر ابن بطريق أن آخوس وهو إرتخشيارش أو خوس هو الذى بنى الحصن ، وروى مؤرخون آخرون غير هـذه اضربنا صفحا عنها ومهما يكن من أمر فان البناء الذى شهده العرب أيام الفتح كان دون نزاع بناء رومانيا وهو التى لا تزال بعض آثاره باقية إلى يومنا هذا .

وقد سبب اسم بابليون ارتباكا كبيرا لمؤرخى العرب فسماه بعض

مؤرخيهم حصن باب إليون ، أو باب إليونة ، وذكر المؤرخ بتلر أن اسم الحصن باللغة القبطية فى وقت الفتح بابلون . آن . خيمى ومعناه بابليون مصر فكان من السهل تحريفه فى اللغة الوربية لأن أول جزء منه « باب » ويمكن أن يفهم أن الجزء الثانى مضاف الى الأول ـ ولعل العرب وقعوا فى هذا الخطأ اذ تصوروا أن باب أون ، مضافة إلى باب وأون هى عين شمس ، الاسم العربى « هليوبوليس » وهو بعيد عن الصواب كما رأينا ويسمى بعض المؤرخين هذا الحصن باسم قصر الشمع ويرى بتلر أن لفظ الشمع قد يكون تحريفا للكلمة القبطية خيمى ، ولكن المقريزى يذكر تعليلا آخر إذ يقول ان هذا العصر كان يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر وذلك أنه اذا دخلت الشمس فى برج من البروج أوقد فى تلك الليلة الشمع على رأس ذلك القصر فيعلم الناس بوقود الشمع أن الشمس انتقلت من البرج الذى كانت فيه الى برج آخر غيره ـ ولعل هذا الخلط وقع فيه المقريزى وغيره من المؤرخين نتيجة لما كان معروفا من ان هذا الحصن كان فيه بيت نار على شاطىء النيل الشرقى منذ أيام الفرس ، وموضع هذا الحصن الآن فيما يسمى اليوم مصر القديمة وقد استطاع علماء الآثار أن يعرفوا بعد الكشف عن بعض أنقاض الحصن وصفا اجماليا لما كان عليه نلخصه فيما يلى : —

كان سمك أسوار الحصن ثمانية عشر قدما وكان بناؤه من الآجر والحجارة طبقة من هذه وطبقة من تلك وكان محيط الأسوار على

شكل مربع غير منتظم وتتخلل أسواره عدة أبراج بارزة بينهما مسافات غير متساوية وأهمها ما كان فى الجانبين الجنوبى والشرقى ولم يكن فى الجانب الغربى أبراج ولعل ذلك كان اكتفاء بتحصين النهر له لأن النيل كان يجرى تحت أسواره وكانت السفن ترسوا تحتها وقد بقيت كذلك إلى أيام الفتح العربي وكان للحصن بابان مهمان أحدهما ويعرف بالباب الروماني كان فى الجدار الغربي وكان يحيط بهذا الباب صرحان لا تزال كنيسة مارى جرجس قائمة فوق الصرح الشمالى منهما والصرح مستدير يبلغ قطره نحو ثلاثين مترا وأما الباب الثانى فكان إلى الجنوب يحيط به برجان عظيمان ، وفى أيام الفتح العربى كان يخرج مرفأ من النيل الى أمام هذين البرجين ، وهذا الباب هو المعروف بباب الحديد وفوق مدخله كانت كنيسة المعلقة ، ولعله سمى بالباب الحديدى لأنه كان مصنوعا من الحديد أو الخشب المصفح بالحديد ، وكانت السفن ترسوا أمام هذا الباب فى المرفأ أو الخندق الخارج من النيل ، وكان على هذا الباب جسر يتحرك الى أعلى فاذا شده من فى الحصن منع وصول الناس الى أسواره ، وقد وجد المنقبون أيضا آثار عدة كنائس وبيع للمسيحيين واليهود فى داخل أسوار الحصن الذى لم يستطع المؤرخون تقدير مساحته . وقد كان يلجأ رهبان النصارى فى أيام ضعف الحكومة الرومانية الى أمثال هذه الكنائس والأديرة ليحموا أنفسهم من غارات بدو الصحراء الذين كانوا يعتدون عليهم ولا تستطيع الحكومة صدهم .

والى الغرب من الحصن كانت تقع جزيرة الروضة فى وسط النيل وكانت ذات حصون قوية تزيد فى خطر الحصن الحربى وتسيطر على النهر ، وكان يصلها بالحصن جسر من المراكب واذا فاض النيل تحول الحصن الى جزيرة فى وسط الماء ، أما الاقليم الواقع الى شرق الحصن فقد كان فى وقت الفتح مزارع فسيحة والى الشمال من الحصن كانت توجد الحدائق وحوائط الكرم ثم تمتد الى الشمال والى الشرق فيما يلى الحصن سلسلة من الكنائس والأديرة بعضها داخل فى حدود القاهرة الحالية وبعضها خارج عنه ـ والراجح أن ارتفاع أسوار الحصن كان لا يتجاوز الستين قدما ؟

وكان الحصن فى وقت الفتح العربى مقرا لحامية الروم كما كان الحال طوال العصر الرومانى وكان للروم حاميات أهمها حامية بابليون وحامية الاسكندرية ، والآن وقد ألممنا بوصف عام للحصن وتاريخه ننتقل الى محاصرة العرب له .

٨ ـ حصار حصن بابليون وفتحه

كان سقوط حصن بابليون فى يد العرب نقطة فاصلة فى تاريخ غزوهم لمصر إذ بسقوطه وقع فى أيديهم نصف إن لم يكن أكثر من نصف البلاد ومن أجل ذلك نرى أن نأتى بنبذ مما كتبه المؤرخون عن سقوط ذلك الحصن ثم نقفى على ذلك بالوصف الشامل الذى يمكن استخلاصه من أقوالهم .

قال السيوطى : لما أتى المدد إلى عمرو بن العاص أتى إلى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعرج واليا عليه وكان تحت يد المقوقس ودخل عمرو إلى صاحب الحصن فتناظرا فى شىء مما هم فيه فقال أخرج وأستشير أصحابى وقد كان صاحب الحصن أوصى الذى كان على البـاب إذا مر به عمرو أن يلقى عليه صخرة فيقتله فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب فقال قد دخلت فانظر كيف تخرج فرجع عمرو إلى صاحب الحصن فقال إنى أريد أن آتيك بنفر من أصحابى حتى يسمع منك مثل ما سمعت فقال العلج فى نفسه قتل جماعة أحب إلى من قتل واحد فأرسل إلى الذى كان أمره به بقتل عمرو لا يتعرض له رجاء أن يأتى بأصحابه فيقتلهم فخرج عمرو فلما ابطأ عليه الفتح قال الزبير انى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتجامع الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر من معه وأجابه المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعا فهربوا فعمد ابن الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن اهـ ص ٤٧ ج ١ السيوطى .

ولا تختلف رواية المؤرخين الآخرين المسلمين عن رواية المسعودى

إلا فى قليل من الزيادة أو النقص أما جوهر الرواية فهو هو ويذكر ابن الأثير أن الزبير بن العوام لما ارتقى الأسوار وأحس بذلك أهل الحصن فتحوا الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين فقبل منهم ونزل الزبير عليهم عنوة حتى خرج على عمرو من الباب معهم فعقدوا صلحا بعد ما أشرفوا على الهلك فأجروا ما أخذوا عنوة مجرى الصلح وصاروا ذمة وأجروا من دخل فى صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر ومن اختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه وابن الأثير هنا يتوسط بين مؤرخى العرب الذى يقول بعضهم إن مصر فتحت عنوة بينما يقول الآخرون إنها فتحت صلحا أما المناظرة التى أشار إليها السيوطى فى وصفه السالف فقد فصلها ابن تغربردى فى النجوم الزاهرة ونحن نلخصها فيما يلى :

أرسل المقوقس إلى عمرو يقول : إنكم وجئتم فى بلادنا وألجئتم على قتالنا وأنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم العدة والسلاح وقد أحاط بكم النيل وأنتم أسارى فى أيدينا فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم علنا نرضى نحن وهم على شىء فرد عليهم عمرو إنه ليس بينى وبينكم إلا احدى ثلاث خصال الدخول فى الاسلام ، أو دفع الجزية ، أو السيف ، وألح المقوقس على الرسل فبعث اليه عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان أسود فكرهه المقوقس ثم اضطر الى سماعه فعرض عليه أن يصالحهم على أن يفرض لكل رجل دينارين ، وللأمير مائة دينار وللخليفة مائة ألف ورفض

عبادة العرض وأصر على الشروط الثلاثة الأولى وهنا تراجع المقوقس وعرض على الأقباط أن يجيبوا القوم الى خصلة من الخصال الثلاث ، فرفضوا الاستماع المقوقس وبعد ذلك استؤنف القتال .

ونعود الآن إلى أقوال بعض المؤرخين الأجانب فى الفتح :

قال موير فى كتابه العظيم عن الخلافة ما نصه : بعد هذا الانتصار «يقصد معركة هليوبوليس» وقعت مدينة مصر «منفيس» التى كان فيها الحصن المعروف ببابليون فى يد عمرو وما كان ثمت مانع من أن يجتاح العرب كل مصر السفلى لو لم تخرج الطبيعة لمساعدة المنهزمين فان نهر النيل الذى كان يفيض مبكرا فى شهر يونيه فى تلكم الأيام كان يعطى فى منتصف أغسطس كل أرض الدلتا ويحولها إلى بحيرات شاسعة ويجعل القيام بحركات عسكرية مستحيلا وأراد عمرو أن يستفيد من فترة الفيضان التى تظل قائمة حتى نهاية السنة فضرب حصارا حول حصن بابليون الذى كان منيعا وبدأ الحصار فى شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ واستمر ثمانية شهور . وأخذ العرب الحصن صلحا وعنوة كما كان الحال فى دمشق وبينما كان الزبير باستماتته وشجاعته قد نجح فى تسور الأسوار كان وفد من الحامية قد حصل على شروط للصلح من عمرو كما ذكر ذلك الطبرى ـ ووقع الحصن فى يد العرب فى يوم الاثنين ٩ ابريل سنة ٦٤١م وكان الامبراطور هرقل قد مات أثناء حصار الحصن فى ١١ فبراير من نفس السنة «يخلط مؤرخو العرب بين هليوبوليس وبابليون ولكن بتلر يفسر سبب هذا الخلط

بتفسير العرب اب اليون بباب عين شمس » اه ص ١٦٢ موير
أما الأستاذ استانلى لين بول فقد ذكر فى تاريخه لمصر فى العصور الوسطى ما يأتى : —

كان من المستحيـــل أن يقوم العرب بهجوم فى فصل الفيضان واضطر الجيش العربي أن يظل دون عمل حتى انتهى الفيضان فى شهر سبتمبر وكان أقصى ما عليهم أن يفعلوه وأن يجعلوا الاتصال بينهم وبين بلاد العرب وأن يظلوا ومن الممكن أن يكون قد حدث قبل ذلك أن الرومان قد حاولوا أن يتلافوا الكارثة بأن يدفعوا للعرب مالا «وهذا هو الذى يدل عليه كتابات المؤرخين البيزنطيين » كما كانت عادتهم فى الأيام السابقة عند ما كانوا يدفعون رشاوى إلى بدو سينا وفلسطين ليتقوا أذاهم ولـكنهم لم يستطيعوا على كل حال أن يثنوا عزم عمرو على الاستيلاء على بابليون فكان حصارها أمرا لا مناص منه ولم يكن لدى العرب خبرة بالحصار ولا آلات تساعد عليه وبخاصـــة إذا كان الحصن قوى الجدران كما كان الحال فى حصن بابليون وكان أقصى ما عليهم أن يفعلوه أن يطوقوا الحصن من نواحيه ولكن هذا التطويق نفسه لم يكن تاما إذ أن أهل الحصن كانوا يستطيعون الاتصال من الناحية الغربية بأهل الروضة وغيرهم والظاهر أن الحصار بدأ فى أوائل أكتوبر إذ يقال إنه استمر ستة شهور وأخيرا سلمت الحامية فى ٩ إبريـــل سنة ٦٤١ م

ذلك مبلغ ما وصلنا إلى تحقيقه ولكن يخيل إلينا أن أمورا كثيرة حدثت فى صيف سنة ٦٤٠م يتحدث عنها المؤرخون العرب الذين هم مراجعنا الوحيدون فى تاريخ هذه الفترة لكن أقوالهم مختلطة ومتناقضة « قال بتلر لم يستطع مؤرخ أن يخرج من هذا التيه الذى بناه كتاب العرب حول الحقائق الرئيسية للفتح ولا أن يجد مفتاحا لغوامضه والكاتب الحالى ـ اين بول ـ لايدعى أنه وجد المفتاح الذى يفتح به مغاليق هذه الناحية » وإنا لنقرأ أنه قبل معركة هليوبوليس حدث أن حاكم مصر الذى يلقبونه بذلك اللقب الغريب المقوقس والذى قال عنه الدكتور بتلر قيرش بطريق الاسكندرية القوى قد بدأ المفاوضات مع العرب بفكرة عقد صلح وأنه أرسل مطران مصر مع أسقف آخر إلى معسكر عمرو فى فترة هدنة فأحسن عمرو لقاءهم وقيل إنه أظهر أمامهم ميولا وديه وتكلم عن عاطفة النبى محمد نحو القبط باعتبار أنهم شعب هاجر الذين قد تسلسل هو من ابنهم « وفرق هذا فان مارية احدى اماء محمد ﷺ ذات الشعر المجعد كانت قبطية أهداها فى سنة ٦٢٨ م حاكم مصرى يسميه المؤرخون العرب قبل الأوان أيضا باسم المقوقس » وعرض عليهم الخصال التى كان يعرضها المسلمون عادة أمام خصومهم وهى الاسلام أو دفع الجزية أو السيف والظاهر أن المفاوضين كانوا يميلون إلى دفع الجزية ولكن قائد الحامية مع حامية الروم رفضوا بتاتا وقطعوا الهدنة بخروجهم الفاشل على العرب ولما واصل العرب حملتهم ورأى الروم أنهم لم يفيدوا شيئا جددوا أمر

المفاوضات مرة أخرى والظاهر أن الذى عجل فى تحديدها هو تسلق الزبير وما كان من أمر استيلائه على باب يحتمل أن يكون خارج الحصن وقد انزعج المقوقس لهذا فعبر النهر مع جماعة من زعماء المصريين إلى جزيرة الروضة وقطع وراءه الجسر الذى كان يربط بين الحصن وبينها وربما كان يقصد من ذلك إلى أن يتمكن من المفاوضة دون تدخل من الحامية والذى يمكن أن نستنتجه من هذه القصة المعقدة أنه كان فى مصر حزبان متعارضان أحدهما دعاة الصلح وهذا يمثل مشاعر المصريين والآخر الحامية الرومانية التى صممت على المقاومة إلى النهاية ويذكر المؤرخون أن المفاوضات الثانية تمت فى أثناء ارتفاع النيل أو بعبارة أخرى حوالى سبتمبر أو اكتوبر عندما كان الفيضان يعوق حركات العرب وفى الوقت الذى بدأ فيه تطويق بابليون .

ويذكر المؤرخون من العرب روايات مختلفة عن تبادل السفراء ولكن يظهر أنها كانت باطلة بأجمعها إنما النتيجة النهائية قد استقرت بلا شك عن معاهدة مصر ، وقد حفظ لنا الطبرى هذه لوثيقة فى نص لانعرف إن كان هو النص الأصلى أم لا وهى تتضمن أمانا شاملا لأهل مصر فى أشخاصهم ودينهم وكنائسهم وصلبانهم وأراضيهم ومياههم على شريطة أن يدفعوا الجزية بعد هبوط النيل وبنسبة تتناسب مع مقدار الفيضان وقد أشهد عليها الله ورسوله والخليفة أمير المؤمنين وكافة المسلمين وقع على الوثيقة الزبير وأولاده كشهود .

كانت المعاهدة مع أهل مصر وقد تضمنت حق الاختيار للرومان

البقاء فى مصر ولكنها لا تشير إلى حصن بابليون وقد يساورنا الشك فى أن الجند لم يوافقوا عليها وعلى كل حال فان أمر التسليم كان مرهونا بموافقة الامبراطور - وتدل المراجع اليونانية « ذكر نيقفور وبيورى فى كتابه الدولة الرومانية المتأخرة أن هناك فكرة غير واضحة تستنتج من روايات اليونان على أن قيرص وافق فى تاريخ متقدم على دفع الجزية للعرب، على أن هرقل رفض الموافقة واستدعى قيرص إلى القسطنطينية ليبرر مسلكه ووبخه على تصرفه وطرده وعلى ذلك ظلت المعاهدة معلقة واستمر تطويق الحصن طول فصل الشتاء وفقد أهل الحامية الأمل إذ لم تأت اليهم نجدة من الأسكندرية وجاء موت هرقل فى فبراير وما تبعه من فوضى فانقطع الأمل تماما فى مساعدة القسطنطينية وعلى ذلك سلمت الحامية المنهكة فى ٩ ابريل سنة ٦٤١ وركبت النهر إلى مدينة نيقيوس اه كلام ليزبول .

وورد فى كتاب تاريخ المؤرخين للعالم فى الجزء الثامن تحت عنوان فتح مصر ما نصه :-

هناك على الضفة الغربية للنيل على مقربة من شرق الأهرام وإلى الجنوب من رأس الدلتا كانت تقع مدينة منف التى كان محيطها يبلغ ١٥٠ فيرلونج « الفيرلونج ⅛ ميل أو ٢٢٠ ياردة » والتى كانت تتمثل فيها عظمة الملوك القدماء وقد طالت مدة الحصار إلى سبعة أشهر ولكن الغزاة المقادير ضايقهم وهددهم فيضان النيل وكان هجومهم الأخير جريئا وناجحا فعبروا الخندق الذى كان محصنا بحسك الحديد ووضعوا سلالمهم

ثم دخلوا الحصن وهم يصيحون النصر لله فطاردوا بقايا الروم في مراكبهم إلى جزيرة الروضة ثم أشير على الغزاة فيما بعد أن يحفروا خليجا من هذه البقعة إلى شبه جزيرة العرب وقد هجرت آثار منف وحولت خيام العرب إلى مساكن دائمة وبورك أول مسجد بأن صلى فيه ثمانون من صحابة محمد فقامت مدينة فى معسكرهم على الضفة الشرقية للنيل . . . اه المؤلف .

وورد فى كتاب تاريخ العرب للأستاذ فيليب حطى الذى صدر أخيرا سنه ١٩٣٧ م مانصه .

حاصر العرب الحصن ولم يكن معهم آلات هندسية أو ميكانيكية تمكنهم من اخضاع الحصن ولكن قيرص الخائن فكر فى أن يبعد العرب بالمال ولكن مساعيه ذهبت هباء وعرضت الخصال الثلاثة المعتادة وهى الاسلام ، أو الجزية ، أو السيف وإن الكلمات التالية التى قالها رسل قيرص تعطينا فكرة عن الأثر الذى تركه هؤلاء العرب رأينا قوما الموت إلى أحدهم أحب من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم اه عن ابن عبد الحكم وبعد أن طلب قيرص وفدا يقابله فى الروضة ليتفاوض معه على الصلح فوجيء إذ وجد وفدا على رأسه رجل أسود

هو عبادة بن الصامت الذى عرض الخصال الثلاث فوافق قيرص على دفع الجزية وأسرع إلى الاسكندريه ليبعث إلى الامبراطور بالشروط فلم تعجب هرقل واتهم نائبه الدينى بالخيانة ونفاه وفى هذا الوقت كان حصار بابليون مستمر وعند نهاية سبعة شهور نجح الزبير وبعض أصحابه فى ردم جزء من الخندق وتسلق الجدران على سلم ومفاجأة الحارس والحامية وقد رنت صيحة الله أكبر الحربية وتردد صداها فى أنحاء الحصن فى ٦ ابريل اه

من ثنايا هذه المراجع التى لخصنا أقوالها أو ترجمنا عنها يمكننا أن نذكر الحقائق التالية عن حصن بابليون وسقوطه بنى الامبراطور تراجان هذا الحصن حوالى سنة ١٠٠ م وكان فى وقت فتح العرب حصينا جدا إذ كان يحصن به النيل من الجهة الغربية وتحميه قناة أو خندق دائم من الجنوب ومن ناحية الشمال والشرق كانت تحف به الحدائق والحقول — ولم يعن الرومان بتحصين الناحيتين الشمالية والغربية لأنهم كانوا يتوقعون الهجمات فى أول الأمر من جهة النيل وإلى الغرب من الحصن كانت تقوم جزيرة الروضة الحصينة يربطها بالحصن جسر من الزوارق .

وفى سبتمبر سنة ٦٤٠ م حفر قيرص قناة فى الشمال والشرق من الحصن أراد بذلك أن يتحول الحصن إلى جزيرة أثناء الفيضان وكان على عمرو أن يهجم على الحصن دون أن يسيطر على النهر أو تكون معه آلات صالحة للحصار وكانت حامية الحصن تبلغ خمسة آلاف جندى

يضاف اليهم عدد من اللاجئين وكان الطعام فى الحصن كافيا ولكن المشاجرات المعتادة ظلت قائمة بين الطوائف حتى أثناء الحصار كما كانت قبله ومما زاد الطين بلة أن قيرص أخذ يواصل اضطهاده للاقباط القلائل فى داخل الحصن كما لو كان لا يزال حاكم مصر وقد خلق وجود قيرص داخل الحصن هوة سحيقة بين الحاكمين والمحكومين. وحوالى اكتوبر سنة ٦٤٠ م جمع قيرص كل الموظفين الذين يثق فيهم وأفهمهم الخطر المحدق وعدم الفائدة من المقاومة وكان قيرص فصيحا فاستطاع بفصاحته أن يقنع القوم أنهم قد هزموا فى الحرب وأنهم على فرض أنهم انتصروا فان الشطر الأكبر من مصر قد ضاع وخير لهم أن يتفاهموا مع العدو خير لهم من أن يضيعوا مصر باسرها على الأمبرطورية وكان أصلح مكان للمفاوضة مع العرب بعيدا عن رقابة المخلصين من الروم للامبراطورية هو جزيرة الروضة فانتقل قيرص الى هناك بعد أن قطع جسر الزوارق وراءه وكان قيرص لا يزال يعتقد شأن كل الرومان إذ ذاك أن الغزو العربى لا يغدوا أن يكون غارة كبيرة ومن أجل ذلك عرض عليهم شروطه هذه السخيفة إذ قال لهم إنهم أصبحوا أسرى فى أيدى الرومان وأنه فى مصلحتهم أن يبرحوا البلاد وكان رد العرب عليه هو عرض الخصال الثلاث فاما الاسلام فيتفقون على قدم المساواة مع المسلمين وإما دفع الجزية عن يد وهم صاغرون فان رفضوا هذه وتلك فليس إلا الحرب حتى يحكم الله .

وخشى قيرص أن يتغالى العرب فى مطالبهم بعد ذلك إذا انخفض

ماء النهر وتمكن العرب من التحرك بحرية فى ربوع البلاد فقبل الشرط الثاني وقاسى كثيرا فى محاولة اقناع كبار الضباط بقبول دفع الجزية وكان جورج قائد جنود الحصن على رأس المعارضين و أبى جند الامبراطور الا القتال واستقر الأمر على هذا سريعا وكان قد قامت فى أثناء المقاوضات هدنة مدتها ثلاثة أيام فلم يكد ينتهى اليوم الثالث حتى أخذ الروم يخرجون الى العرب يفاجئونهم فتنبه العرب وتكاثروا على الروم وتراجع الروم فدخلوا الحصن بعد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة أما المقوقس فانه ما زال عند رأيه من الاذعان للعرب واتخذ من هزيمة الروم فى خرجتهم السابقة وسيلة للتنديد بهم لمخالفته فى الرأى وكانت النتيجة فى صالح العرب وقوى جانب قيرص ووافق العرب على أن يمتنع القتال حتى تأتى موافقة هرقل على الشروط ـ أما قيرص فانه أسرع الى الاسكندرية وبعث بكتاب الى هرقل يطلب اليه فيه ان يوافق على الصلح حتى يقى مصر شر الحرب ووبالها وقد غضب الامبراطور غضبا شديدا ممتزجا بالحيرة لأن كتاب المقوقس لم يكن مبينا ان كان الصلح خاصا بتسليم بابليون فقط أو تسليم مصر بما فيها الاسكندرية للعرب كما أنه لم يستطع أن يتبين من الكتاب ان كان الصلح يجعل العرب يرحلون عن البلاد بعد أخذ الجزية أم يبقون فيها وهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من الروم واسلامها الى العرب أم رشوة العرب لاخراجهم من البلاد ـ حار هرقل فى أمره وحق له ان يحار ولم يجد مخلصا الا أن يبعث برسالة الى قيرص ليأتى على عجل

الى القسطنطينية ويشرح للامبراطور الأمر وكيف أن مائة الف من الرومان لم يستطيعوا ان يقاوموا خمسة عشر الفا من العرب - وسافر قيرص الى القسطنطينية وكان لقاء عنيف بينه وبين الامبراطور الذى اتهم قيرص بالخيانة والخور ثم حكم عليه بانه مرتكب مجرم كافر رعديد ثم أسلمه الى حاكم المدينة فشهره وأوقع به المهانة ثم نفاه من البلاد طريدا .

وقد عرف العرب بخبر رفض الأمبراطور للصلح وهم فى حصار الحصن قبل نهاية سنة ٦٤٠ م وأنتهى بذلك عهد الهدنة واستؤنف القتال وكان النيل عند ذلك يهبط سريعاً فتهبط بهبوطه المياه التى فى الخندق وتخبو مع هبوطها آمال من فى الحصن وكان على الروم أن يدافعوا عن خط طويل من الأسوار ولما فرغ الخندق من مائه استعاض الروم عنه بأن رموا فى قاعه حسك الحديد ثم ظهر الوباء وخيل إلى من فى الحصن أن شمس الخلاص غربت وان لا أمل فى النجاة وسعى العرب من جانبهم إلى طم بعض أجزاء الخندق وهدم جوانبه حتى ينفذوا منه ولكن الحصار الذى ضيقوا به على الحصن من جانب البر لم يكن ذا أثر من جانب النهر ومضى الشتاء فقل خروج الروم من الحصن وقتالهم للمسلمين و كانوا يفعلون ذلك فى بعض الأحيان ويعودون بالفشل

ثم لاحت بارقة أمل للمحصورين ذلك أن تودور جمع جيشاً فى الدلتا وسار فى النيل يقصد إنقاذ الحصن وترامى الخبر إلى عمرو فلم يقم حتى يقبل عليه العدو بل ترك من جيشه جماعة عند الحصن وتوجه

على طول الفرع الشرقى فى النيل حتى وصل إلى أتريب فعبر النهر عندها ثم توجه إلى سمنود فبعث تيودور باثنين من قواده ليدافع عن المدينة والتقى الجمعان على كتب من سمنود ودارت معركة انهزم فيها المسلمون بعد أن كبدوا عدوهم خسائر جمة وعلى الرغم من انتصار تيودور فانه لم يستفد شيئاً من ورائه ولم يبعث بجند إمداداً لأهل الحصن وكان عليه قبل أن يصل إليه أن يحطم سلسلة الحصون التى أقامها العرب فى بوصير وأتريب ومنوف

وفى مارس سنة ٦٤١ م أتت الأخبار بموت هرقل فيئست الحامية وعرف الروم بالأمر لما سمعوا تكبيراً عالياً فى معسكر المسلمين وكان ما أصاب الروم من الأنكسار وفقد الروح المعنوية لا يقل عما اعترف المسلمين من التحمس وقوة الروح المعنوية وأخذ العرب يتهيئون للهجوم الأخير فطموا اجزاء من الخندق حتى إذا كانت ليلة عيد الفصح الأثنين ١٦ ابريل سنة ٦٤١ م إذا بالزبير يضع سلما على السور من الناحية الجنوبية فيتسلقه والسيف فى يده واذا بالبطل العربى على رأس الحصن ومن ورائه بقية المتسلقة ولم تنفع فى صدهم جماهير من فى داخل الحصن لانهم امطروهم سهاما والظاهر أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من ذلك الجانب فبنوا حائطا تعترض المشى فوق السور من جانبيه فحمل العرب السلم وأهبطوه الى قلب الحصن ولو أن عزيمة الروم لم تخر لا استطاعوا أن يقضوا على هؤلاء ولكنهم بدل ذلك تجمع كبارهم فى أو الصباح وسألوا عمرا الصلح وعرض جورج قائد الحصن أن يسلم على أن

يأمن كل من هناك من الجند على انفسهم فقبل عمرو الصلح على الرغم من معارضة الزبير الذى كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة وكتب عمرو عهد الصلح على أن يخرج الجند من الحصن فى ثلاثة أيام وينزلوا بالنهر ويحملوا مايكفيهم من القوت لبضعة أيام أما الحصن وما فيه من الذخائر والآلات الحربية فقد وقع فى يد العرب وبأنما أراد الروم أن يجعلوا آخر أيامهم فى بابليون سودا على غيرهم كما كانت سودا عليهم فعمدوا إلى الأقباط الذين كانوا قد حبسوهم فى أول الحصار فجروهم على وجوههم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم أمرهم بذلك كبيرهم أودوقيانوس فليس عجيبا أذن أن نسمع حنا النيقيوسى يسبهم ويسميهم أعداء المسيح الذين فتنوا الناس عن إيمانهم فتنة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج وأن فتح المسلمين للحصن لم يكن إلا نقمة إلهية من الله على الروم جزاء ما فعلوا من الأفاعيل بالقبط

كذلك سقط حصن بابليون وبسقوطه فقد الرومان نصف إن لم يكن أكثر من نصف مصر كما قلنا فى أول هذا الفصل وقبل أن نسير مع عمرو إلى الاسكندرية يجدر بنا أن نثبت هنا نقلا عن الجزء الرابع من الطبرى نص وثيقة الصلح وهى التى يسميها الطبرى صلح عين شمس ويجدر بنا قبل أن نورد نصها ان نشير إلى أن بمركان يرى أولا أنها ليست إلا الصلح الخاص بالاسكندرية وانها سميت صلح عين شمس خطأ ولكنه عاد فعدل أخيرا عن رأيه هذا فى رسالة عنوانها « معاهدة مصر فى كتاب «الطبرى» وسلم بصحة ماذهب اليه الطبرى

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليهم ما جنى لصوتهم فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن أتى بريئة وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا عليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان اهـ ص ٢٢٩ ج ٤ الطبرى .

ويرى بتلر أن الصلح الذى ابرم عند بابليون لم يكن إلا عهدا حربيا ولم يكن عقدا سياسيا فقد رضى عمرو أن يدفع ثمنا له تأمين من كانوا فيه وخروجهم منه بغير أن يسلموا أو يدفعوا الجزية وإنما دفع الجزية من بقى من أهل المدينة واذ كان هذا العهد لا يمس إلا مدينة مصر والحصن ، فقد كانت الجزية قليلة ومؤقتة ويخطىء من يقول إن القبط عامتهم دخلوا فى عهد الصلح الذى كتبه عمرو عند فتح

بابليون فان ذلك العهد إنما دخل فيه أهل ذلك الموضع على أن شروط ذلك الصلح نفسه عرضت فيما بعد على من كانوا على كثب من تلك الناحية ولكن هذا الصلح أحدث فى دولة الروم أثرا كبيرا مع أنه لم يكن الا صلحا مقصورا على جماعة صغيرة وسبب ذلك مكانة منفيس أو بابليون فانها وان لم يبق لها المحل الأول فى البلاد كانت لاتزال تعتبر باب الصعيد واقليم الدلتا وكان حصنها منيعا اذا وقع فى يد عدو دان له الصعيد وهابته بلاد الدلتا .

«٩» « الزحف الى الاسكندرية »

لم يكد يفرغ عمرو من فتح الحصن حتى أمر باقامة جسر السفن بين الحصن والروضة وبين الروضة والجيزة فوصل بذلك شاطىء النهر واستطاع أن يشرف على ما ينتقل فيه من السفن والبضائع ثم اتجه فكره أول ما اتجه بعد ذلك إلى الزحف على الأسكندرية قبل أن يعود النيل إلى فيضانه فأرسل إلى الخليفة يخبره بما كان من فتح ويستمده ثم أقام على المدينة مسلحة من المسلمين عليهم خارجة بن حذافة السهمى ثم امتطى عمرو صهوة جواده وسار على رأس جنوده متتبعا شاطىء الفرع الغربى للنيل لحصار مدينة نيقيوس وكان الرومان قد جمعوا جنودهم فى بعض مدائن كبيرة ولكن الشطر الأكبر والأهم من جندهم استعصم بالاسكندرية وكانت هناك حامية فى مدينة نيقيوس عليها القائد دومنتيانوس الذى سبق أن فر من الفيوم أما مدينة نيقيوس هذه فكانت مدينة ذات شأن عظيم وهى

تقع عند ملتقى ترعة الفرعونية بفرع رشيد ومكانها قرية شبشير الحديثة على مسيرة يوم من بابليون وساعتين من منوف وكانت منوف إذ ذاك فى يد العرب وتعتبر نيقيوس من المدن القديمة ذات الآثار الجليلة من أيام الفراعنة وكانت مقر أحد كبار رءوس الدين المسيحى وهى محطة حربية هامة على الطريق من بابليون إلى الاسكندرية فلا بدع والحالة هذه أن يقف الروم فيها وقفة فى وجه العرب ـ وقصد عمرو فى سيره أن يكون على حافة الصحراء حتى لا يعوق خيله عائق من الترع الكثيرة التى تعترض مصر السفلى وكان أول اعتراض لقيه عند مدينة قديمة إلى الجنوب من نيقيوس يسميها العرب الطرانه ومنها يبدأ الطريق إلى أديرة القبط فى صحراء لوبيا عند هذه المدينة المسماة أيضا طرنوط حدث اشتباك بين العرب والروم انتصر فيه العرب وأخذ عمرو يستأنف زحفه إلى مدينة نيقيوس ولما كانت نيقيوس تقع على الشاطىء الشرقى للنهر فان عمرا عبر النيل إليها وكان يدافع عن المدينة دومنتيانوس كما اسلفنا وقد كان تحت تصرفه عدة سفن لكى يهبط بها على جيش عمرو عند عبوره ولكن القائد الرومى لم يكد يرى المسلمين حتى اعتراه الخور فترك جيشه وسفنه وأمعن فى الهرب إلى الاسكندرية وتلاه جنده فأمعنوا بعد ذلك فى الفرار وجروا إلى السفن وعند ذلك طلع جنود العرب على الروم وهم فى الماء بغير سلاح ـ يقول بتلر ـ فقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا رجل اسمه زكريا ثم دخل العرب المدينة فلم يقف فى وجههم جند واحد ـ قال حنا النيقيوسى ـ فقتلوا

كل من وجدوه فى الطريق من أهلها ولم ينج من دخل فى الكنائس لائذا ولم يدعوا رجلا ولا امرأة ولا طفلا ولا شك أن حنا النيقيوسى كان مبالغا لأنه إذا سلمنا أن العرب قتلوا الرجال فلا يعقل أنهم يقتلون الشيوخ والأطفال والنساء ولم نسمع عنهم فى كل حروبهم أنهم فعلوا شيئا كهذا وبخاصة فى هـــذه المعركة التى لم يلقوا فيها مقاومة من أعدائهم .

وبعد فتح نيقيوس أصبح الطريق مفتوحا إلى الأسكندرية وكان جيش الروم عند ذلك يقوده تيودور ويتقهقر به شيئا فشيئا نحو تلك العاصمة . ولم يقم عمرو فى نيقيوس طويلا بل عبر النيل الى الغرب وبعث قبل تحركه واحد من رجاله ليتتبع العدو المنهزم فلحقت هذه الطليعة بجيش الروم عند موضع الى الشمال من نيقيوس فأحاط الروم بالطليعة فاضطر قائدها وهو شريك أن يبعث الى عمرو الذى بعث اليه بمدد لم يكد الروم يسمعون به حتى فروا هاربين فأضافوا بذلك غلطه الى سلسلة أغاليطهم ويعرف الموضع الذى حدثت فيه هذه المعركة باسم كوم شريك نسبة الى ذلك القائد العربى ـ ووصل عمرو الى كوم شريك وأخذ يواصل زحفه متجها الى الشمال الغربى ومتتبعا جانب الترعة التى تخرج من شمال كوم شريك الى الاسكندرية ثم انحدر الى الشمال ميمما وجهه شطر دمنهور فاعترضه الروم مرة أخرى عند مدينة سنطيس الى الجنوب من دمنهور ووقعت هناك واقعة انهزم فيها الروم وتقهقروا أمام العرب ولم يحاولوا أن يدخلوا دمنهور

بل تدافعوا الى الشمال الغربي فى الطريق المؤدى الى الاسكندرية حتى أشرفوا على حصن كريون ـ وكريون هذه آخر حلقة فى سلسلة الحصون التى تربط ما بين بابليون والأسكندرية ولم تكن فى مناعة حصن نيقيوس ولكن الروم عولوا أن يقفوا هناك الوقفة الأخيرة فى وجه العرب قبل اللجوء الى الاسكندرية وقد روى المؤرخون حتى المسلمون منهم بسالة الروم وشجاعة تيودور قائدهم ولكن تيودور على الرغم من شجاعته ومما وصله من المدد من البلاد المجاورة مثل بلهيب وسخا وسنطيس وغيرها ، لم يكن ذا رأى فى الحرب ولم تجده تلك القوى التى تجمعت عند كريون لمقاومة العرب ولا بد أن كلا من العرب والروم كان يعتقد أن مصير كريون له مابعده واستمر القتال أكثر من عشرة أيام وأصيب عبد الله بن عمرو بجروح خطيرة وكان حامل لواء المسلمين وردان مولى عمرو وأبطأ الفتح على المسلمين حتى اضطر عمرو الى أن يصلى بالناس صلاة الخوف ويخيل الينا أن الروم قد يئسوا من النصر رغم حسن بلائهم فأخذوا بقيادة يتودوريتقهقرون بانتظام جيد جدا الى الأسكندرية وهكذا سقطت كريون فى يد العرب وأصبح الطريق أمام عمرو والعشرين ألف جندى الذين يقودهم مفتوحا الى الاسكندرية لا تقوم فيه عقبة واحدة وقضى عمرو فى كريونه أيام قلائل ربما يستريح جنده من وطأة الحرب السابقة ثم أخذ بعد ذلك يتحرك صوب الاسكندرية وما هى الا أيام قلائل حتى أشرف جنده على أسوار عروس البحر الأبيض وأجمل ثغوره

وقد كنا نريد قبل الكلام على حصار الأسكندرية وتسليمها أن نأتى بوصف شامل لها من أيام تأسيسها فى عهد الأسكندر القدونى إلى حالتها أيام البطالسة والرومان وعند الفتح العربى ولكنا نرى الآن أن لا نقطع سلسلة الفتح مكتفين بوصف قصير ومرجئين الكلام المفصل إلى باب نعقد فيه فصولا للمسائل السابقة ونضيف اليه فصلا فى مشكل مكتبة الأسكندرية وفصلا آخر فى تدهورها.

ونسير الآن مع عمر وجنوده البواسل بعد أن استراح فى كريون أياما إلى الأسكندرية.

(١٠) حصار الاسكندرية وتسليمها

لسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن الأسكندرية كانت حتى فى هذا القرن السابع أجمل مدائن الدنيا وأرشقها بل لسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنها كانت أجمل من القسطنطينية نفسها وأنها قد ورثت تراث البطالسة فى أيام مجدهم، والنصرانية فى أوقات زهائها، وإذا كانت الاسكندرية تبدو جميلة حتى فى نظر أولئك الذين شاهدوا مدائن غيرها كبيرة فانها بلا شك كانت رائعة فى نظر أولئك العرب الذين لم يبرحوا مكة والمدينة إلا ليزوروا بعض أطراف الشام وفلسطين والعراق فلا عجب إذا تبدت المدينة لهم وقد أشرفوا على أسوارها وشاهدوا قبابها وأعمدتها ومسلاتها ومنارتها العظيمة التى كانت إحدى عجائب الدنيا السبعة - إن كثيرا من

المدائن فى الشام والعراق تمكن العرب من إسقاطها ولكنهم الآن أمام مدينة قوية التحصين يحميها البحر من الشمال وتحميها القنوات والترع من الجنوب والغرب وتمتد فى أسفلها بحيرة مربوط وتحيط بها أسوار عالية من كل جانب أما من الناحية الشرقية فكانت أسوارها مهيأة بكل الأسلحة العلمية التى أنتجتها فنون الحرب فى ذلك العصر وكانت المدينة وافرة الذخيرة والمؤن تروح السفن وتغدو إلى موانئها فى البحر الذى لم يكن للعرب سفينة واحدة فيه وتشرف على حمايتها مسلحة عدتها خمسون الف مقاتل تلك كانت عدة المدينة عاصمة الامبراطورية الثانية فماذا أعد العرب لفتحها لم يكن لديهم من العدة إلا سقيمها ولم تكن لهم خبرة فى فنون الحصار وحربه ولكنهم كانوا يحملون قلوبا ملئت إيمانا وقوة وجربوا من قبل قوتهم هذه فى فتح أمصار الشام ـ أراد عمرو أن يجرب قوته فحمل على المدينة عند أول وصوله إليها حملة غير موفقة لم يلبث أن ارتد بعدها بعيدا عن الأسوار حتى لا يتعرض لقذائف المجانيق ولم يكن عمرو رجلا غير حصيف فرسم لنفسه سياسة لاسقاط المدينة غير طريقة الهجوم التى أصبحت فى نظره مستحيلة وهى استدراج الحامية إلى خارج الأسوار والالتقاء بهم فى ميدان مكشوف ولكن أمر ذلك قد يطول ولم يكن عمرو من السخف بحيث يترك عشرين الف جندى كسالى عند أسوار مدينة لا تثير جودهم فآثر أن يخلف فى عسكره جيشا كافيا للرباط وأن يسير هو مع من بقى من الجند فيضرب بهم فى بلاد مصر

السفلى قبل أن يجىء موسم الفيضان فيتعذر على المسلمين أن يسيروا فيها وكان كثير من الروم قد هجروا قصورهم حول الاسكندرية وتحصنوا داخل أسوار الاسكندرية فوقعت هذه القصور فيئا فى يد العرب فهدموا الكثير منها وبعثوا بخشبها وحديدها فى سفن ليقيموا بها جسرا على النيل عند بابليون وكان عمرو يريد الرجوع إلى بابليون ولكنه أراد أن يشعر سكان الدلتا بوجوده فسار إلى كريون ومنها إلى دمنهور ثم ء فرع رشيد الى اقليم الغربية وضرب فى ذلك الاقليم حتى بلغ قصبته وكانت إذ ذاك مدينة سخا ولكنه لم ينجح فى اسقاطها لمناعة أسوارها ولاكتنافها بالمياه فتركها وتحرك الى الجنوب حتى وصل الى طوخ الواقعة الى الشمال الغربي من موضع طنطا ومن طوخ عبر فرع دمياط الى دمسيس ولكنه لم ينجح فى اسقاط هاتين القريتين أيضا ثم بعث بسرايا من جيشه قيل انها وصلت الى مدينة دمياط ، ومضى العرب زهاء ثنى عشرا شهرا فى أقاليم الدلتا دون أن يجنوا كبير فائدة قال بتلر - وهذا يزيدنا برهانا على ماتحت أيدينا من البراهين على فساد رأيين يذهب اليهما الناس أولهما أن مصر من أذعنت للعرب بغير أن تقاتل أو تدافع وثانيهما أن المصريين رحبوا بالمسلمين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه .

لم يكن ثم مناص بعد هذا من أن يعود عمرو الى الاسكندرية غير أننا نرى لزاما علينا قبل أن نعود معه الى الاسكندرية نترك قليلا

لنجول ببصرنا فى أنحـــاء الدولة البيزنطية لنرى عن أى شىء كانت تتمخض الحوادث هناك أثناء تجواله هو فى أرض الدلتا مما كان له أثر فى تسلم الاسكندرية كما سنرى مات هرقل فى ١١ فبراير سنة ٦٤١م قبل تسليم بابليون بشهرين تاركا وراءه ولدين أحدهما قونسطيطين من زوجته الأولى أو دقيا وهرقـل أو هرقلوناس من زوجته الثانية مرتينا وبينما كان الاول يعد العدة لانقاذ مصر مات فى مايو من نفس السنة تاركا وراءه طفـــلا هو قونستانز الثانى — وقد أكره حزب الحرب بقيـادة فالنتين أو فلنتنيان الامبراطوره مرتنيا على أن تشرك قونستانز الثانى مع ولدها فى الحكم — ونفذ قونسطيطين أمر أبيه فبعث بأسطول ليعيد قيرس من منفاه ، وكان هرقل يود قبـل موته أن يرجعه ويجتمع به ليشـاوره فى أمر مصر كما كانت مرتينا ترغب فى ذلك جدا — وهاد قيرس والتقى بقونسطيطين ومرتينا ، وقـــد نجح فى إغراء قونسطيطـين ومرتينـا وحملهما على تسليم مصر ، ولكن قونسطيطين لم يلبث أن مات فى ٢٥ مايو سنة ٦٤١ م بعـــد حكم دام مائة يوم فاتخذت مرتينا من موته وسيلة تذرعت بها إلى المبايعة لابنها هرقلوناس بملك الدولة .

سافر قيرس إلى مصر ومعه طائفه كبيرة من القسوس ولم ينقص شيئا من سلطانه الدنيوى بل اباح له الامبراطور أن يصـالح العرب وأن يقضى على كل قتال بعد ذلك فى البلاد وأن يعمل على قرار الأمور فيها وإدارة شئونها وهـــذا بلا شك برينا أن الامبراطور كان يعتقد

أن فى طوقه الايقاء على لمطته فى مصر ـ أما قيروس الذى يقولون عنه إنه كان خائنا للدولة فانه بلا شك كان رئيسا من انتصارها على العرب بعد أن توالت الهزائم عليها فى الشام ومصر ومن اجل ذلك كان يطمع فى ظل الحكم الجديد أن ينال من العرب حقا يبيح له ممارسة مذهبه الدينى فى مصر وبسط يده على الكنيسة القبطية فيها حتى لا يكون لأحد فى القسطنطينية وكان يعتقد أن العرب لن تبخل عليه بهذا نظير مساعدته لهم فى تسليم البلاد .

ولم تكن الاسكندرية نفسها أقل انقساما وشجارا فقد انقسم الجند فيها إلى حزبين ـ أحدهما بزعامة ميناس وهو قبطى محبوب من الشعب والآخر بزعامة دومنتيانوس الذى رأيناخيانته فى الفيوم ونيقيوس وكان من أنصار قيرس ـ أما تيودور فكان يكره كلا من الرجلين ويخيل إلينا أنه كان يأمل أن ينقذ جزءا من الأمبراطورية ليسيطر عليه نفسه ـ وفوق هذا فان المدينة نفسها كانت تغص بالمهاجرين من بلاد الدلتا الذين كان من بينهم عدد كبير من الأقباط المخلصين لمذهبهم والذين بدأوا يثيرون المنازعات الدينية من جديد ـ وكان اليهود أيضا طرفا فى بعض ذلك النزاع ـ وإن من أعجب الأشياء أن ينزل قيرس بالأسكندرية فى أحد أصبحة شهر سبتمبر سنة ٦٤١ م فيذكر يوحنا النيقيوسى أن أهل المدينة طرا ملكهم الفرح فخرجوا يذكرون سرورهم ويشكرون الله على عودة طريق الأسكندرية وتوافد الناس من كل جانب يحيونه ويكرمونه من رجال ونساء كبارا وصغارا وهو وصف

يمكننا أن نستنتج منه وقد وعدنا يوحنا النيقيوسى صدق أخباره أن الأقباط فى الاسكندرية كانوا فئة قليلة ضائعة بين أهلها الكثيرين لا يحس بهم أحد - واجتمع قيرس سرا مع تيودور ودعا إلى اجتماعهما ميناس واستقر الامر على عزل دومنتيانوس وجعل ميناس قائد حامية المدينة . وانتهى ارأى لقيرس ومن معه على الاعتقاد بان غزو العرب للبلاد ليس إلا غزوا دنيا وعلى ذلك تحرك قيرس إلى بابليون فى أواخر أكتوبة سنة ٦٤١ م وكان العرب قد قضوا الاشهر الاواخر القليلة فى إخضاع مصر العليا حتى وصلوا الى مدينة طيبة ، وقد أراد أهل تلك المنطقة أن يقاوموا العرب ولكن الحاكم حنا أبى كل الاباء أن يقف لقتال العرب ثم استولى على الاموال العامة التى جمعت وحملها معه وخرج بجنوده ضاربا إلى الصحراء الغربية قاصدا الاسكندرية إذ كان يخشى أن يلتقى ما لقيه جنود الفيوم من قبل وعلى ذلك يمكننا أن نقرر فى اطمئنان أن غزو مصر العليا كان أمرا سهلا بالنسبة لغزو بقية البلاد المصريه وان المسلمين هناك قبلوا أن يدفعوا الجزية عن طيب خاطر لسادتهم الجدد ولسنا ندرى أكان عمرو قصره على رأس تلك فرق التى غزت الصعيد أم أنه اكتفى بارسال بعض قواته اليها ومهما يكن من أمر فانه قد عاد الى بابليون بعد أن تم فتح بلاد الصعيد أو على الاقل بلاد مصر الوسطى كيما يستريح بأصحابه فى أوان فيض النيل وكان ذلك قبل وصول قيرس إلى بابليون - التقى قيرس بعمرو فقال له إن الناس

قد عرلوا على أن يدفعوا الجزية كما تقف رحى العرب فقال عمرو لقد احسنت فى الشخوص الينا ثم أكرم وفادة قيرس ورحب به واستمرت المفاوضة أياما طويلة وانتهى الأمر فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ٦٤١ م بكتابة عقد الصلح الذى نسميه صلح الأسكندرية وإن كان قد عقد فى بابليون تمييزا له عن الصلح الذى سبق عقده عقب حصار بابليون - ونستطيع أن نقرر أن هذا الصلح الجديد اسلم مصر نهائيا الى العرب - وقد أورد حنا النقيوسى شرط ذلك الصلح ورتبها العلامة بتلر فى البنود الآتية .

معاهدة الاسكندرية :

١) أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢) أن تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهرا تنتهى فى شهر بابه القبطى الموافق ٢٨ من سبتمبر سنة ٦٤٢ م

٣) أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة الهدنة على أن لايقوموا بأى عمل حربى ضد الاسكندرية وأن يوقف الروم كل الاعمال العدائية .

٤) أن ترحل حامية الاسكندرية فى البحر وأن يحمل الجنود معهم متاعهم وأموالهم على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على شريطه أن يدفع كل شهر جزية شهرية ما بقى فى رحلته فى أرض مصر .

٥) أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يحاول استردادها

٦) أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين وأن لا يتداخلوا بأى شكل فى أمورهم الدينية

٧) أن يباح لليهود البقاء فى الأسكندرية

٨) أن يبعث الروم من قبلهم رهائن عدتها ١٥٠ جنديا، ٥٠ مدنيا ضمانا لأنفاذ هذا العقد

وقد أصبح المصريون بهذة المعاهدة أهل ذمة أو على حد التعبير الأوربى تحت الحماية العربية أما قيمة الجزية التى نص عليها فى البند البند الأول فقد نص البلاذرى على أن عمر اصالح المقوقس على ثلاثة عشر الف دينار ولا شك أن هذا خطأ ربما كانت صحته ثلاثة عشر ألف ألف دينار كما تؤيد ذلك بعض الروايات الأخرى العربية التى يتأرجح تقديرها بين ١٢ الف دينار وثلاثمائة الف الف دينار ولا شك أن الأقرب إلى الصحة والمعقول هو ١٢ الف الف دينار وهذا المبلغ يعادل تقريبا ستة آلاف من الجنيهات - وكانت الفريضة على كل حالم من القبط دينارين دينارين - وسنعود إلى تفصيل الجزية ومقاديرها فى موضوع آخر

أما الشرط الثانى الخاص بعقد هدنه مدتها أحد عشر شهرا فانه يعتقد أنه كان فى صالح المسلمين الذين لم يكن لديهم من القوة ما يحملهم على إكراه الروم على تقصيرهم هذه المدة

وأما الشرط الثالث الخاص : بأن يبقى العرب فى مواضعهم مدة الهدنه ويرى بتلر أنه خاص بأهل الاسكندرية لأن قيرص وإن كان قد

صالح للعرب بالنيابة عن أهل البلاد كلها ما كان يضمن أن ترضى كل مدينة أو طائفة بما رضى به هو ولم يمنع ذلك الشرط العرب من قتال بعض البلاد فى مدة الهدنة وأكراهها على التسليم عنوة

وأما الشرط الرابع الخاص برحيل حامية الاسكندرية بحراوبرا فهو شرط رحب به العرب ورأينا فيه رأينا فى الشرط الثانى وهو أن العرب قبلوا هذا لظروفهم الخاصة ولو كانو أصحاب قوة لاستطاعوا أن يصادروا أملاك الخامية ولما سمحوا لهما بحمل أموالها

وأما الشرط الخامس الخاص بعدم عودة الروم لاسترداد مصر فانه كان شرطا صوريا سرعان ما كذبته الحوادث إذ حاول الروم بعد ذلك استرداد الاسكندرية كما سيأتى ذلك

أما الشرط السادس الخاص باباحة الحرية الدينية للاقباط فهو شرط كانت الظروف تتطلبه من الجانبين ولم يشذ العرب فيه عن تصرفاتهم مع كل أهل الذمة

كذلك يمكننا أن نقول هذا عن الشرط السابع باقامة اليهود فى الاسكندرية .

وأما الشرط الثامن الخاص بالرهائن فهو بلا شك شرط تافه وصورى كالشرط الخامس وغيره ويجمل أن نشير هنا الى أن بابليون سلمت أثناء فيضان النيل بالشروط التى رفض هرقل الموافقة عليها وكذلك الاسكندرية فانها سلمت فى وقت فيضان النيل أيضا — ولا نستطيع أن ننتقل من هذه المسألة الى مسألة أخرى قبل أن نشير

الى موضوع يبدىء مؤرخو العرب ويعيدون فيه اطلاقا هل فتحت مصر عنوة أو صلحا وقد اختلفت فيه آراء المؤرخين ولكل فريق منهم حججه وأكبر ظننا أن هذا الخلاف لم يكن الا تيجة لخلط الحوادث فاما فيما يتعلق بفتح بابليون فقد رأينا أن الزبير قد تسلق الأسوار عنوة فى نفس الوقت الذى خرجت فيه الحامية للموافقة على الشروط التى كانت قد انتهى اليها عمرو مع المقوقس — وهنا نشأ الاختلاط — أما فيما يتعلق بفتح الاسكندرية فقد بينا الآن أنها فتحت صلحا بالعقد الذى أوردنا نصوصه ولكن لما أعاد الروم فتح الاسكندرية وخرج اليهم عمرو كما سنبين فيما بعد وأكرههم على التسليم خلط فريق من المؤرخين بين هذا الفتح عنوة والفتح السابق صلحا ويجب أن لا ننسى أن المؤرخين العرب بطبيعة الحال يميلون الى أن يكون الفتح صلحا لأغراض أهمها أن لا يكون الفتح مقيدا بشروط تغل أيديهم بعض الغل ولعل أقلها الفخر الذى يعود على الفاتحين عنوة.

أمضيت المعاهدة فى نوفمبر سنة ٦٤١ م كما بينا وتلتها هدنة مدتها أحد عشر شهرا وحمل قيرس شروط الصلح الى تيودور وهو القائد الأعلى للجيش وقونسطيطين وهو قائد الحرس فأقراها وان كان لم يحضرا كتابتها أو يتفق على تفاصيلها مع قيرس قبل ذهابه الى بابليون ويرى بتلر — أن موقف تيودور محير مدهش وأنه اذا كان عالما بتسليم المدينة للعرب فلا بد أنه قد غير رأيه وأصبح من أشياع الصلح ، وأما اذا

كان غير عالم فمن أعجب الأمور أن يسارع الى الموافقة على أمر لا يصفه بتلر الا انه كان تسليما شائنا .

وفى ديسمبر ظهر فريق من العرب أمام أسوار المدينة يطالبون القسط الأول من الجزية وقد أثار ظهورهم الدهشة والحماس فى نفوس السكان وهموا بحرب العرب وكادوا أن يقتلوا قيرس قبل أن يتمكن من الافصاح عن نواياه وإفهامهم أن لا فائدة ترجى من المقاومة ـ وكان هرقلوناس قد أقر المعاهدة فى آخر نوفمبر سنة ٦٤١ م فكانت آخر عمل قام به كامبراطور لأنه قتل هو وأمه بعد ذلك فقلهما حزب فونستاز الذى انفرد بالحكم فى نفس الشهر وكانت نتيجة ذلك أن كل أصدقاء قيرس نفوا ووجد البطريق نفسه لا بين فريقين يناصبه العداء الأقباط فى مصر وحاشية الامبراطور فى القسطنطينية وكان قيرس منذ عودته من المنفى لم يأس ما فى قلبه من حفيظة على ديانة القبط فلم يرض أن يسالمهم أو يعفو عنهم بل عاد الى عسفه وظلمه وجعل يوقع بمن كان منهم فى منال يده ـ ويرجح بتلر ـ أنه كان يفعل ذلك ليدارى عن أهل الاسكندرية حقيقة أغراضه وهى اسلام مصر جميعها للعرب

أدرك قيرس الآن مبلغ الخطأ الذى وقع فيه بتسليم مصر وساءه أن تفشل خططه فهجره أصدقاؤه وكان يخشى نقمة أعدائه فى بلاط القسطنطينية ولعل الحزن قد حز فى نفسه ونجسمت أمامه جريمته فقضى نحبه فى مارس سنة ٦٤٢ م .

وفى يوليه سنة ٦٤٢ م أرسل بطريق ملكانى جديد اسمه بطرس

وكانت حالة الاسكندرية عند وصوله تستدعى الأسى فقد ركدت فيها سوق التجارة وخلت أرصفتها من المراكب والبضائع وهجر الأشراف الأغنياء وكبار التجار مدينتهم وتركوا بيوتهم خاوية على عروشها .

وفى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م بارحت الحاميه الرومانية لاسكندرية وبعد اثنى عشر يوما دخلها العرب .

والآن وقد دخل العرب الاسكندرية تبرز نقطة جديرة بالمناقشة وهى ؟ هـــل كان فى طوق العرب أن يفتحوا الاسكندرية عنوة ؟ والجواب على ذلك يمكن أن تقرأه فى أول هـــذا الفصل ونعيد لك تلخيصه الآن فى كلمات قليلة وهى أنه لم تكن هناك ضرورة حربية تدعوا إلى التسليم ما دامت أساطيل الروم تسيطر على البحر فتستطيع أن تمد المدينة بالمؤونة والذخائر والجند إذا استدعى الأمر فتقوى بذلك أطول حصار يمكن أن يعرفه الناس وبخاصة لأن العرب لم يكن لديهم علم بالحصار ولا وسائله ـ قال بتلر ـ قد يقول قائل أن فتح بابليون قد أوهم الروم وأن جنودهم قد امتلأوا هيبة من العرب وأن الجيش الرومانى كان لا يثق فى قواده ولا يرى منهم إلا الخيانة والعجز وكل هذا صحيح ولـكن كان فى الاستطاعة إرسال جنود غير تلك الجنود وقواد غير أولئك القواد ولكن أحدا لم يسع إلى ذلك .

وقد يسأل سائل عن السبب الذى حمل أهل الاسكندرية على قبول الصلح والرضى عن قيرس بعد أن كادوا يفتكون به والجواب عن ذلك يمكن أن نلخصه فى نقطتين .

النقطة الأولى دينية والثانية اقتصادية .

فأما عن الأولى فان الناس كانوا يأملون فى ظل الحكم العربي أن يمارسوا طقوسهم الدينية فى أمن ودعة وأن يتخلصوا من اضطهاد قيرس وطغيانه

وأما المسألة الثانية فانهم كانوا يأملون أن تنزاح عن عواتقهم تلك الضرائب المتعددة التى كان يبهظهم بها الروم - حقيقة إن العرب أحلوا محل هذه الضرائب الجزية وخراج الأرض ولكنها مهما يكن مقدارها كانت لها فضيلة البساطة وكانت ثابتة المقدار محددة القصد وعلى كل فان أهل الاسكندرية ومصر كان يجول فى خواطرهم أن الحكم العربى إن لم يكن أحسن من الحكم الرومى فلن يكون أسوأ منه

وقبل أن نختتم هذا الفصل يجدر بنا أن نذكر أن عمراً كتب بشروط الصلح التى عقدها مع قيرس وبعث بها الى كل بلاد مصر وأمن الناس على أموالهم وذمتهم وكنائسهم وحمايتهم من أعدائهم إذا دفعوا الجزية وسنرى فى الفصل التالى ما كان من شأنه مع بقية البلاد التى لم تفتتح .

وكذلك نذكر هنا أن عمراً بعد أن تم فتح الاسكندرية بعث إلى الخليفة عمر برسول هو معاوية بن حديج ينهى اليه أمر الفتح ويصف له الاسكندرية فلما راى عمر الرسول قام معه إلى المسجد وأذن المؤذن للصلاة فأقام الصلاة شكراً لله على ما أولى ولما عاد مع معاوية إلى داره صلى مرة أخرى ثم طلب الطعام فقدم له خبز وزيت يأتدم به فوضع

ذلك أمام الضيف فأصاب منه شيئا خفيفا على استحياء ثم قدم له تمرا في طبق فأكل على حياء أيضا ثم قال ماذا قلت يامعاوية حين أتيت المسجد قال قلت أمير المؤمنين قائل ـ قال بئس ما قلت أو بئس ما ظننت لئن نمت بالنهار لأضيعن الرعية ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي فكيف بالنوم مع هذه يامعاوية .

قال بتلر وهكذا أرسل نبأ الفتح إلى المدينة وهكذا تلقاه الخليفة بغير زينة ولا ضجة

لقد سجلنا على الرومان أغاليطهم أبان خطوات الفتح الأولى وقلنا إن سقوط بابليون أفقد الرومان نصف إن لم يكن أكثر من نصف مصر وأظن أنا في حل الآن أن تقرر أن تسليم الاسكندرية كان أفحش غلطاتهم واذا كان الرومان قد خسروا نصف مصر بعد فتح بابليون فلا شك أنهم الآن بعد فتح الأسكندرية قد خسروا أربعة أخماس النصف الثاني وسنذكر في الفصل التالي كيف فقد الرومان البقية الباقية لهم في مصر .

-١١- (فتح بلاد الساحل وبقية الصعيد)

لم تكد تنتهي مدة الهدنة حتى بارحت الحامية الرومانية الاسكندرية (١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢م) ثم دخل العرب المدينة الخالدة في ٢٩ سبتمبر سنة ٦٤٢م وقد سبق أن قلنا إن عمر أرسل الى سائل لمن يخبره بشروط الصلح

ولكن بتلر يرى ذلك على سبيل الاحتمال فقط وكان طبيعيا بعد إمضاء الامبراطور هرقلوناس عقد الصلح أن تطفأ كل جذوة للمقاومة وأن يستمع الأقباط الى ما عرضه عمرو من شروط حسنة ولكن الذى حدث غير ذلك اذ أن بعض البلاد فى شمال الدلتا كانت رومانية أكثر من الرومان فرفعت لواءهم ورفضت ان تتخلى عن الأمر للعرب وكانت هذه حماقة ما بعدها حماقة ان دلت على شىء فهى تدل على أن الأقباط لم يرحبوا كل الترحيب بالعرب كما هو الرأى الشائع لدى جمهور المؤرخين وقد اضطر رفض هذه البلاد عمرا الى أن يسير اليها بنفسه أو يرسل اليها السرايا لتدخلها فيما دخل فيه سائر الناس ، وذلك على الرغم من أن عمرا فى هذه الاثناء كان منشغلا بأمر آخر وهو بناء مدينة الفسطاط فى السهل الذى يلى حصن بابليون مما سنعرد له بابا خاصا بعد الفراغ من أمر الفتح .

وتاريخ فتح بلاد الساحل غامض فى المراجع العربية وفيه خلط كبير ولا تزيل المراجع القبطية شيئا من الغموض فى الحوادث التى تلت فتح الاسكندرية لأن حنا النيقيوسى لم يذكر شيئا من أمر القتال فى هذه المدة وقد ضايق هذا الأمر المؤرخ بتلر فلم يجد بدا من الاعتماد على مؤرخى العرب وما جاء فى أخبارهم رغم صعوبة فهمها أو الربط بين أجزائها وقد صرح أنه يلجأ إلى الحدس والتصور فى ربط الحوادث وترتيبها ونحن إلى حد كبير نتابعه فى تاريخ هذه الفترة

بعد الاسكندرية تحرك العرب إلى الشرق لفتح بلاد الساحل

وكان أول بلد اتجهوا اليها هى مدينة إخنا التى تقع على مقربة من أبى قير الحالية وكان حاكم هذه المدينة يسمى الطلا فأتاه كتاب من عمرو يطلب اليه التسليم على الشروط التى صالح عليها قورس، فرفض نمحل بالسؤال عن مقدار الجزية فلم يحتمل عمرو هذا وسير إلى المدينة فرقة أرغمتها على التسليم وأخذت من أهلها جمهورا كبيرا من الأسرى بعثت بهم إلى عمر بالمدينة .

وكان نصيب مدينة بلهيب الواقعة على النيل إلى الجنوب من رشيد مثل نصيب قرية اخنا وعقد صلح آخر مع قزماس حاكم مدينة رشيد ، وصلح غيره مع حنا حاكم مدينة البرلس .

ومن البرلس تحرك العرب شرقا حتى وصلوا الى مدينة رخيس على ساحل البحر الأبيض الى الغرب من دمياط ومنها اتجهوا الى مدينة دمياط فلم يلقوا كيدا وسلم لهم حاكم المدينة المسمى حنا أيضا

وبسقوط دمياط ورشيد سيطر العرب على مصبى النيل الهامة وامتد نفوذهم الى كل بلاد مصر السفلى اذا استثنينا بعض البلاد الواقعة على الجزائر المبعثرة فى بحيرة المنزلة ذات الماء الضحضاح وكانت أهم هذه البلاد الجزائرية بلد ناشطا وتينيس (وهى خلاف تانيس أوصان الحجر الواقعة الى الجنوب الغربى منها على الفرع التانيسى)

فأما شطا فيخلط بعض مؤرخى العرب (كالمقريزى) بينها وبين تانيس ودمياط ويقولون ان العرب عند ماحاصروا دمياط وفتحوها خرج اليهم حاكمها (شطا) ومعه الفاز من الناس فأعلن إسلامه وكان

قد ظل مدة من قبـــل يدرس هذا الدين وأنه لما رأى أن العرب قد طالت مقاومة تنيس لهم جمع جيشا من مدن البرلس ودميرا وأشمون طناح وجهزهم ولحق بامـــداد المسلمين الذين قدموا من عند عمرو بن العاص إلى قتال أهل تنيس فالتقى الفريقان وأبلى شطا منهم بلاء حسنا وقتل من تنيس اثنى عشر رجلا واستشهد فى ليلة النصف من شعبان سنة ٢١ هـ فقبر حيث هو الآن خارج دمياط وبنى على قـــبره وصار الناس يجتمعون هناك فى ليلة النصف من شهر شعبان كل عام ويقول المقريزى إن شطا هو ابن الهاموك وكان أبوه خال المقوقس وإلى شطا تنسب الثياب الشاطوية ولا شك أن نسبة المدينة إلى شطا بن الهاموك لأن شطا كانت معروفة قبل الفتح العربى وكانت تشتهر بدقة منسوجاتها وجودتها ، وقد ذكر يوحنا النيقيوسى خرافية أن حاكم دمياط اسمه حنا وليس شطا .

أما تينيس فكانت مدينة قائمة على جزيرة فى الطرف الجنوبى الغربي من بحيرة المنزلة وكانت مدينة كبيرة متسعة تجود بها صناعة المنسوجات الدقيقة شأنها فى ذلك شأن عدة مدائن أخرى تختلف فى البحيرة مثل طونة ، ودميره ، ودبيق ، كانت تصل هذه الجزيرة بالنيل ترعة تعرف ببحر الروم ، وكان لها ميناء صالح ترسو عليه السفائن ، وأشهر أنواع الأقمشة التى كانت تصنع هناك النوع المعروف باسم أبو قلمون الذى كان حريره يبدو متغير الألوان ؛ وتدل القصة العربية على

أن حاكم تنيس كان رجـــلا من العرب النصارى اسمه أبو طور وإنه خرج على رأس جيش كبير من القبط والرومان لحرب المسلمين وهم فى طريقهم الى تنيس بعد استيلائهم على دمياط فالتقى بهم فى عـدة مواطن ولم يتمكن العرب من هزيمة جيشه وأخذه أسيرا إلا بعد لأى شديد وبعد ذلك سلمت المدينة لهم ومن هنا تحركوا إلى الشرق ناحية الفرما يقصدون الفرما ـ قل بتلر ـ مهما يكن من أمر تلك القصـة ومبالغها من الصدق أو الخطأ فأنها تحوى أمرين لهما قسط وافر من الصحة ـ أحدهما أن العرب فتحوا تنيس فى ذلك الوقت ـ والثانى أنهم لم يصيبوا صناعتها المشهورة بشىء من السوء

ولم تعجب هذه البلاد الواقعة فى بحيرة المـنزلة العرب فـــلم يفكروا فى الاقامه فيها ولعل هذا يفسر لنا بقاء النصرانية فى هـذه البلاد زمناطويلا

يتبين لنا من أخبار هذه الفتوح فى شمال الدلتا أن المصريين لم يسلموا للعرب بغير قتال ولم يرحبوا بهم

أما مدن الصعيد فقد سبق أن أشرنا إلى أن النفوذ العربى امتد هناك إلى إقليم طيبه ونضيف هنا أن فتح هذا الصعيـــد تم على يد خارجة بن حذافة ولسنا نعتدى على الحقيقة فى قليل أو كثير إذا نحن ذكرنا أن بلاد الصعيد بعد فتح الأسكندرية أذعنت للعرب بغـــير قتال ودليلنا على ذلك أن المراجع العربية والمراجعة القبطيـة تصمت صمتا تاما .

وقد سبق أن أشرنا فى الفصل الماضى إلى موت قيرس ونضيف هنا أن موته كان بعد دخول العرب الأسكندرية بستة شهور. وتختلف الروايات فى سبب قتلة فبعضها يذكر أنه خاف من عمرو فجعل فى فمه خاتما مسموما فمات من ساعته ولكننا لا نميل إلى تصديق هذه الرواية لأن قيرس الذى لم يخف من الأمبراطور عند لقائه ليس معقولا أن يخاف ذلك الخوف فينتحر ويؤيد رأينا هذا ما ذكره يوحنا النيقيوسى من أنه مرض بالدوسنتريا ومات فيها وهذا لا ينفى أنه عاش فى أيامه الاخيرة غريقا فى بحار الحزن وسنعالج مشكلة قيرس فى موضع آخر

«١٢» فتح برقه وطرابلس والنوبة وانتهاء حكم الرومان بمصر

والآن وقد تم فتح مصر بسقوط الاسكندرية واخضاع بقية بلاد الدلتا وتسليم بلاد الصعيد فانة يخيل الينا أن عمرا أدرك بذكائه إن مقامه بمصر لن يكون آمنا إذ يجوز جدا أن يعود الروم الى استردادها من ناحية المغرب فلكى يصون فتوحاته فكر فى أن يفتح ذلك الاقليم الواقع الى الغرب منها المعروف باسم اقليم بلطابوليس والمراجع العربية لا تشفى غلتنا أيضا فى وصف هذا الفتح واليك بعض ما أوردته هذه المراجع

ذكر البلاذرى ؟ أن عمرا بن العاص لما فتح الاسكندرية سار فى جنده يريد برقه وهى مدينة انطابوليس فصالح أهلها على الجزية

وهى ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه ب لهم بذلك كتابا ؟

وذكر السيوطى ؟ أنه لم يذهب إلى برقه إلا الخيل، وأن الطريق اليها كان سهلا أو على حد تعبير بتلر كان نزهة لفرسان العرب ولا نعلم على وجه التحقيق فيما تحت أيدينا من المراجع أكان فتح برقة فى فترة الهدنة الطويلة أم كان بعد دخول العرب الأسكندرية فان الخلاف فى ذلك بين المؤرخين كبير ـ فقد ذكر ابن الأثير أن غزو برقة كان فى سنة ٢٢هـ ـ أما ابن خلدون وياقوت والكندى فيذكران أن الغزوة كانت فى سنة ٢١هـ وكذلك يذكر ابن بطريق أنها كانت فى سنة ٢٢هـ ويخيل إلينا أن هذا الخلاف نتيجة لخلط بين هذه الغزوة وبين سرية أخرى أرسلت إلى بلطابوليس فى سنة ٢٥هـ ـ وقد ولى عمرو عقبة بن نافع الفهرى المغرب فبلغ زويله ـ ذكر البلاذرى والسيوطى ذلك وكتب به إلى الخليفة عمر ـ قال البلاذرى ؟ بلغ عقبة زويله وإن من بين زويله وبرقة سلم كلهم حسنة طاعته وقد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويله ومن بينهم وبينها ما رأى أنهم يطيقونها وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها فى الفقراء ويأخذا الجزية من أهل الذمة فتحمل اليه بمصر وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم اهـ ؟ قال بتلر : فى شروط ذلك الصلح شرطان عجيبان الأول أنه أبيح لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة والثانى

أنه كان عليهم أن يحملوا الجزية إلى مصر حتى لا يسمح بدخول جباة الجزية إلى بلادهم ـ وقد قال ياقوت إن أكثر أهلها أسلموا .

وبعد فتح برقة سار عمرو إلى طرابلس وكانت أكثر منعة من برقة إذ كانت بها حامية كبيرة من الروم وكان البحر من ورائها خاليا من العدو فأدرك العرب هذا وحاصروا المدينة حصارا قدره بعض المؤرخين بشهر وقدره بعضهم بثلاثة أشهر ثم دخل جماعة من المسلمين بين أسوار المدينة والبحر فصاحوا صيحتهم الله أكبر فترددت أصداؤها فى طريق المدينة فزعر المدافعون وحملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم وأسرعوا إلى سفنهم وحلو قلوعها وفى أثناء ذلك ترك الحراس الأبواب ودخل عمرو بجيشه المدينة فكان فتحها عنوة كما ترى ـ قال البلاذرى وأصاب عمرو بها أحمال زيون كبيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسمه بين المسلمين وكتب إلى عمر بن الخطاب إنا قد بلغنا طرابلس وبيننا وبين افريقية تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى فتحها فعل فكتب اليه ينهاه عنها ويقول له ما هى بافريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا فكانو يغدون به كثيرا ـ ونلاحظ هنا أن الخليفة عمر قد عاوده حرصه على عدم التوسعة فى الحرب حتى لا يعرض المسلمين إلى التهلكة فى الأقطار الشاسعة ـ غير أن عمرا لم ينتظر حتى يأتيه رد الخليفة عمر بل انه بعد فتح طرابلس صار مسرعا حتى طلع بغتة على مدينة صبرة وهى تقع الى الغرب قليلا من طرابلس وهاجمها في الصباح على

غرة من الناس الذين كانوا يعتقدون أن العرب لا يزالون على حصار طرابلس ولهذا فتحت المدينة عنوة عند أول حملة حملوها عليها فكان أخذها عنوة وقد غنم العرب منها غنائم كثيرة - بعد فتح صبره عاد عمرو إلى برقه فجاءت إليه أمم قبيلة من قبائل البربر وهى قبيلة لواته فدانت له بالطاعة ولم يطل مقامه فى برقة طويلا بل عاد على رأس جيشه المظفر يسوق أمامه عددا كبيرا من الأسرى ومقدارا كبيرا من الأسلاب .

ودفع الحرص عمرا على مصر أيضا إلى فتح جزء آخر حتى لا تعرض البلاد التى كان يعتز بفتحها إلى شىء من الخطر وقد سبق أن قلنا إن كل بلاد مصر السفلى قد سلمت للمسلمين حتى أسوان ولكن النوبة كان يمكن أن تهدد مصر وكان أهلها قذى فى عيون الحكام المصريين فى كل العصور كثيرا ما يغيرون على بلاد الصعيد لينتهبوا خيراتها فرأى عمرو أن يؤمن حدود البلاد من الجنوب كما أمنها من الغرب .

قال البلاذرى ، فبعث عقبة بن نافع الفهرى وكان نافع أخ العاصى لأمه فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم فلقى المسلمون بالنوبة قتالا شديدا لقد لاقوهم ورشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفتوحة فسموا رماة الحدق فلم يزالوا كذلك حتى ولى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح فسألوه الصلح والموادعة فأجابهم بذلك على غير جزية ولكن على هدنة ثلاثمائة رأس فى كل سنة وعلى أن يهدى المسلمون اليهم طعاما يقدر ذلك اهـ ؟

من هذا الذى أورده البلاذرى يتبين لنا أن المسلمين لم يتمكنوا من فتح النوبة لا عنوة ولا صلحا وأن الصلح الذى عقده عبد الله بن سعد سنة ٣١ هـ فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان صلح ندين وكان أقرب ما يكون إلى المهادنة لا يقاتل فيها فريق الآخر وإن أعطت النوبة رقيقا أعطى المسلمون بقدر ذلك طعاما وخلعا وقد وصلت إلى عمرو هذه الجزية التى يسميها المقريزى البقط قبل أن يعقد عبد الله بن سعد المعاهدة معهم - قال لين بول - وصلت البقط أو الجزية السنوية وقدرها ثلاثمائة وستون رقيقا إلى عمرو بن العاص ومعها أربعين رقيقا آخر هدية لعمرو ولكنه رفض قبولها كهدية ودفع نظيرها غلالا ومؤونة - وسنعود إلى ذكر هذه الجزيه التى ظلت تدفع حتى عصر المماليك أى أكثر من ستة قرون عند الكلام على ولاية عبد الله بن سرح لمصر

بهذه المهادنة التى تمت مع النوبة نستطيع أن نقرر فى شىء كبير من الأطمئنان أن حكم الرومان قد انقضى من مصر نهائيا وأن فتح مصر قد تم نهائيا للعرب وأن ذلك الفتح قد أحيط بفضل حرص عمرو وذكائه بكل ما يمكن أن يحاط به من الضمانات والآن قبل أن ننتقل إلى الكلام عن أعمال العرب فى مصر نرى لزاما علينا أن نعالج مشكلة كثيرا ما كانت موضع الخلاف بين المؤرخين العرب والأجانب وبعضهم البعض وتلك هى مشكلة شخصية المقوقس وقد تصدى لمعالجة هذه المشكلة العلامة بتلر فى شىء كبير من الأسهاب وسنعتمد على

ما أورده فى ملاحق كتابه فتح مصر إلى حد ما .

١٣ ـ شخصية المقوقس

لم تثر شخصية الخلاف فى تعرف حقيقتها بين العلماء ولم تحط شخصية فى التاريخ بالغموض التى أحيطت به شخصية المقوقس الذى لعب دوراها ما فى تاريخ الفتح العربى لمصر وقد قام الخلاف بوجه خاص بين مؤرخين عظيمين أحدهما الأستاذ بتلر صاحب كتاب فتح العرب لمصر الذى يعتبر أكبر كتاب وأهمه فى تاريخ هذه الفترة الغامضة والثانى العلامة استانلى لين بول صاحب كتاب تاريخ مصر فى العصور الوسطى ـ ومن غريب الصدف أن كلا من المؤرخين كتب كتابه فى سنة متقاربة فالدكتور اين بول وضع كتابه فى سنة ١٩٠٠ م والدكتور بتلر وضع كتابه بعد ذلك بعامين وقد ذهب لين بول إلى أن الشخصية التى كان يطلق عليها العرب إسم المقوقس إنما كانت تطلق على جورج حاكم الاقليم الشرقى لمصر ويعتمد فى ذلك على تحرياته الخاصة وعلى ما كتبه بعض المؤرخين مثل الدكتور ملن صاحب كتاب مصر تحت الحكم الرومانى الذى يقول فى الملحق الرابع من كتابه تحت عنوان جورج المقوقس مانصه : تدل الروايات العربية عن فتح العرب لمصر على أن أهم شخصية فى الرومان كانت شخصية المقوقس أو جورج ميناس المقوقس كما أورد ذلك أبو صالح وهو يعتمل على أنه حاكم مصر الذى دعا العرب إلى غزو البلاد وخان

بلاده بذلك – أما الأستاذ كاراباكك فقد ناقش المسألة وانتهى به الأمر إلى أن المقوقس إنما هو تحريف للقب من ألقاب شرف اليونانية يطلق على جورج بن ميناس – ولكن يوحنا النيقيوسى وهو أقدم بكثير من كل مؤرخى العرب وأضبط فى أخباره فانه يلقى ضوءه على المسألة وهو يقرر أنه بعد معركة هليوبوليس فى يولية سنة ٦٤٠ م عندما كان عمرو يتهيء إلى محاصرة حصن بابليون أرسل إلى جورج الحاكم وأمره أن يبنى جسراً على قناة قليوب شمال بابليون وأن جورج بدأ من ذلك الوقت يتعاون مع العرب إن هذه الحقيقة توضح لنا حكاية المقوقس إذ يرجح أن جورج كان حاكم إريب إذ لم تكن مقاطعته محددة بينما أسماء حكام مصر ومصر السفلى وأركاديا قد ذكرها يوحنا النيقيوسى فى موضع آخر وربما كانت وظيفته على شرق الحدود تجعله أول شخص هام أتت اليه رسل محمد ﷺ وأن الاتصال الأول بين المسلمين والرومان كان عن طريقه وبذلك كان طبيعيا أن تكون له أهمية خاصة فى نظر مؤرخى العرب وتلا ذلك أنه بانضمامه مع العرب وبهيمنته على طرق المواصلات بين بابليون والاسكندرية قد قدم خدمة عظيمة لعمرو وعلى ذلك ازدادت أهميته وكان المركز الذى وضعه فيه مؤرخى العرب يرجع إلى هذه الظروف اه.

أما مؤرخو العرب فان الانسان يرتبك لكثرة الأسماء التى ذكروها مما لا نرى داعيا إلى إعادة ذكرها وتحرى الشخصيات التى قصدوها ولكننا نكتفى بذكر ثلاث أشخاص يهمنا معرفتهم وهم

المقوقس ، وأبو مريم ، والاعـرج.

١» فاما الأعرج أو الأعيرج فقد ذكره ياقوت وغيره على أنه كان نائبا عن المقوقس ، ويقول لين بول ، أنه هو أرطبون أحد الروم ، ولكن بتلر يرى أنه قلب لاسم جورج قائد حصن بابليون

٢» وأما أبو مريم ، أو أبـو مريام ، أو ابن مريم ، فقد ذكـره الطبرى وغيره على انه كان كبير أساقفة النصارى ، ويرجح بتلر معتمدا على بعض مؤرخى القبط أنه لم يكن غير بنيامين البطريق اليعقوبى الذى فر من وجه قيرس وأعاده عمرو بنـاء على طلب القبط ويمكن بسهولة إدراك أن الألفاظ السابقة ليست إلا تحريفا لاسمه ولـكن بتلر نفسه عاد فقال فى رسالته معاهدة مصر فى الطبرى التى نشرها بعد كتابه فقال إن من الجائز أن يكون لفظ أبو مريام تحريفا لاسم قائد ارسله لمساعدة قيرس يسمى مريانوس ـ يقول معرب بتلر وبذلك تبطل حجة المؤلف فى تجريح مؤرخى العرب وحمل قولهم على الخلط.

٣» وأما المقوقس وهـو موضع بحثنا الآن فقد ذكره البلاذرى وقال إنه صالح عمـرا وكان فى جانب القبط بعد أن أبى هرقل أن يقر صلحه ـ وذكر الطبرى ـ أن المقوقس كان حاكم منفيس وأنه كان عظيم القبط ـ وذكر ابن الأثير ـ المقوقس على أنه كان يقود الجيش بنفسه فى معركة عين شمس ثم ذكره أنه كان حاكم الاسكندرية وقت الحصار ويجعل ابن خلدون المقوقس قبطيا ـ ويذكـر ابن دقاق المقوقس الرومى عامل هرقل ـ ويذكر المقريزى أن المقوقس الرومى كان واليا

على مصر وصالح عمرا وهـو يتفق فى ذلك مع يافوت الذى يقول إن المقوقس بن فرقب كان يونانيا ويذكر أن القبط كان لهم فى الاسكندرية أسقف اسمه أبوميامين وأن المقوقس صالح العرب غـير أن هرقل لم يقر صلحه وعنفه على أنه كان كالقبط فى الجبن والخسة ـ وذكر قيرس يقال إن هرقل أقام قيرس بطريق الاسكندرية ـ وذكر كل من ابن تغربردى والسيوطى المقوقس على أنه ابن فرقب اليونانى من كل هـذه المراجع العربيـة يمكن أن نستخلص أن المقوقس كان أولا يونانيـا — وثانيا كان صـاحب النفوذ الأول فى مصر بقى أن نبحث الآن من المراجع القبطية على من يمكن أن تنطبق تلك الأوصاف والأعمال التى ذكرها مؤرخو العـرب وناجـأ ذلك إلى مؤرخين لا مجال للطعن فى روايتهما ـ فاما أحدهما فهو يوحنا النيقيوسى وهذا قد ذكر فى أكـثر من موضع أن قـيرس كان ذا سلطان فى أمر الدين والدنيا ، وذكر أيضا الاضطهاد الذى شهره هرقل فى بلاد مصر جميعها على أتباع مذهب القبط وذلك بتحريض البطريق الخيلقدونى قيرس ـ وجاء فى كـتاب ساويرس أن هرقل بعد استعادة مصر من الفرس استعمل قيرس وجعل له ولاية الدين والحكم فى الاسكندرية ثم ذكر اضطهاد القبط وبنيامين فقال عشر سنين كان هرقـل وقـيرس يحكمان فيها مصر ـ وفى الوثائق القبطية التى نشرها آميلنو وثيقة عن البطريق الملكانى (الخالقدونى) الذى لا يعترف له القبط بالسلطان بل إنهم يوالون بطريقهم بنيامين على أن ذلك البطريق الخالقدونى قد

جمع له السلطان الدينى والدنيوى على بلاد مصر - من كل هذه التحقيقات وغيرها استطاع الاستاذ بتلر أن يؤكد أنه لم يعد شك فى أن المقوقس - وقد ورد اسمه بهذا النص فى الصورة الأصلية القبطية هو قيرس بعينه ونحن نتابع الدكتور بتلر فى رأيه هذا وان كان قد جرحه الاستاذ لين پول بالتشكيك أولا فى صحة ترجمة النصوص القبطية وبعدم الميل الى تصديقها إن كانت صحيحة وحجته فى ذلك أن سلسلة كتب المؤرخين العرب الطويلة ليست فيها أى اشارة الى ان المقوقس هو قيرس وأن المسائل التى جعلت شخصية المقوقس تنطبق على شخصية قيرس كانت من باب الاتفاق وأنهما كان شخصان مختلفان كان كل منهما حاكما على مصر من قبل هرقل وان المقوقس كان حاكما تابعا قام بمصالحة العرب وأن قيرس البطريق والحاكم الأعلى أقر ماقام به وتابعه عليه.

وقد عاد الاستاذ لين پول فى الطبعة الثانيه لكتابه (١٩١٤ م. فقال ان الحجج التى أدلى بها الدكتور بتلر فى رسالته معاهدة مصر فى الطبرى سنة ١٩٣ م والتى تضمنت تأييدات جديدة لنظريته يعتبرها فصل الخطاب ويسره أن يعلن أنه قد اعتنق رأى بتلر ولكنه يقول إن من الصعب أن يفسر الانسان لماذا يكاد كل مؤرخى العرب يجمعون على أن المقوقس كان قبطيا وكيف أنهم كانوا كلهم يجهلون اسمه الحقيقى ووظيفته الدينية لذلك يمكن أن نعتبر أن شخصية المقوقس قد بت فيها نهائيا وأنه لم يكن غير قيرس البطريرق الملكانى

والحاكم المدنى لمصر من قبل هرقل.

بقيت هناك مسألة وهى هل قيرس هذا هو الحاكم الذى بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته مع حاطب بن بلتعة سنة ٦٢٧ م أم هو شخص آخر غيره والاجابة على هذا السؤال تقل عنا عن تعرف شخصية المقوقس . فالمؤرخون العرب الذين يروون كتاب النبى يذكرون بصريح العبارة كلمة المقوقس عظيم القبط بمصر والنسخة الأصلية لكتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس التى يقال إن بعض المستشرقين وجدها فى الصعيد فى منتصف القرن الماضى يقرؤ فيها بالخط الكوفى كلمة عظيم القبط ولئن كانت هذه النسخة حقيقية غير مزيفة فانها تهد كل وصل اليه بتلر بعد هذا الجهد الكبير ولسنا ندرى لم لم يتعرض بتلر لذكر كتاب النبى عليه السلام إلى المقوقس مع أنه أعتمد على براهين أقل منه قوة بكثير حقيقة أنه قد نقض الرأى الذى وصل اليه أميلنو من أن خبر ارسال خطاب من النبى صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس فى سنة ٦٢٧ م خبر غير حقيقى وبتلر على حق فى رفض رأى آميلنو لأن الروايات تجمع عليه ولا تختلف الا فى بعض الفاظ الكتاب وتؤيدها الأدلة المادية ومن بينها زواج النبى من مارية القبطية وانجابها له ولده ابراهيم ولكن نص الخطاب ومناقشة كلماته وبخاصة كلمة المقوقس عظيم القبط لم يتعرض لها بتلر بأكثر من قوله الذى نورده هذا - وأما ما قيل من أن المقوقس ورد ذكره فى سنة ٦٢٧ م على أنه حاكم مصر إذ أرسل

النبى محمد كتابه الى ذلك الحاكم يدعوه فيه الى الاسلام فانه اعتراض يسهل الجواب عليـــه فان من أوضح الحقائق أن مؤرخى العرب الذين يذكـرون اسم المقـــوقس ليس عند أحدهم أى إدراك لمعنى ذلك اللفظ ولا لاشتقاقه وقد استعمل اللفظ وقصـد به حاكم مصر فى سنة ٦٢٧ خطأ فقد كان عنـد مؤرخى العرب أمران «١» أن النبى محمد أرسـل رسـولا الى حاكم مصر سنة ٦٢٧ م «٢» أن حاكم مصر فى وقت فتح مصر كان اسمه المقوقس وهو الذى كان أكثر الناس ذكرا فى تاريخ ذلك الفتح فاستنتجوا من ذلك خطأ أن الحاكم السابق كان اسمه المقوقس كذلك وهذا خلط كان من اسهل الأمور ويكاد يكون لابد منه فى عقول لم تكن بطبعها نقاده فليس ثمة ما يبرر تكذب خبر بعث النبي بالرسول الى حاكم مصر كما فعل آميلنو إذ أنه خبر قام عليه من الدليل ما قام على أى خبر مصدق من أخبار تاريخ الاسلام اهـ ويتلو هنا ينكر بطريق غير مباشر نص كتاب النبى ويتهم النص الذى أجمعت على روايته المراجع العربية لخطابه عليه السلام بالتنزوير ونحن وان كنا نتهم الصورة التى قيل إن أحد المستشرقين « إبتيان بارتلمى الفرنسى) حصـــل عليها سنة ١٨٥٠ م بدير قرب أخميم على رق بال لكتاب النبى بأنها نسخة مزورة لفقها بعض الذين يغررون وقلد بها الخط الكوفى فانا لانستطيع الا أن نقرر أن كلمة المقوقس هذه ربما كانت علمـا على حاكم مصر أو رئيسها الدينى سواء أكان ذلك الحاكم قبطيا أم رومانيا ولا يسعنا فى هذا المجال الا أن نقرر

أن الغموض الذى صحب المقوقس لم يزل النقاب الا عن شخصيته التى ثبتت وبخاصة بعد اعتناق ابن بول لرأى بتلر أنه هو قيرس البطريق الملكانى والحاكم الرومانى لمصر ـ أما كيف جاء هذا اللفظ المقوقس وشاع عند المؤرخين العرب حتى أطلقوه على ثلاثة أشخاص هم :ـ (١) الحاكم الذى جاءه كتاب النبى قبل الفتح بسنوات (٢) الحاكم الذى كان وقت الفتح (٣) وعظيم القبط وقت ثورة منويل وكلهم يستحق أن يلقب به نقول ان هذا اللفظ وهل هو اسم بيزنطى أو لقب بيزنطى أم غير ذلك وما أصله وما معناه وهل كان العرب يطلقونه على كل شخص يحكم مصر من قبل الروم أم هو علم على شخص خاص ـ نقول ـ ان ذلك رغم بحوث بتلر وغيره لايزال لغزا غامضا يحتاج الى حل لاتساعدنا المراجع والبحوث التى بين أيدينا على تحقيقه واماطة اللثام عنه .

«الباب الرابع» وفيه ـ فصول ـ

﴿ الاسكندرية ﴾

(١) ـ « وصفها فى عهد البطالسة والرومان »

فى سنة ٣٣٢ ق م غزا الاسكندر المقدونى مصر وفى أثناء رحلته من منف إلى كانوب عثر على مدينة صغيرة تدعى رقوده واقعة على الزاوية الشمالية الشرقية لبحيرة مريوط فخيل بخاطره أن ميناء رقوده وجزيرة فاروس التى تقابلها يصلحان لأن يكونا عاصمة لامبراطوريته فأمر فى الحال بتخطيط المدينة وكلف مهندسه دينوقراطيس بأن يمسح المكان وبأن يضع تصميما لعاصمة حربية تجارية من الدرجة الأولى وقد أشرف الاسكندر بنفسه على تخطيط الأرض وفى الحال ابتدأت عملية البناء ولكن المدينة لم يتم بناؤها إلا فى عهد بطليموس الثانى (فلادلفيوس) وكان كل ملك من ملوك البطالسة يبدأ فى تجميل المدينة وتوسيعها ـ والذى نقد التصميم الذى وضعه دينوقراطيس مهندس آخر يدعى كليومينيس النقراشى وكانت المدينة تشبه مستطيلا استديرت منه الزوايتان الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية ـ وكان شوارع المدينة متقاطعة تقاطعا عموديا ومتسعة اتساعا يكفى لمرور العجلات والراجلين وكان يخترق المدينة شارعان عظيمان يبلغ عرض كل منهما مائتى قدم ؛ يوصلان مابين أبواب المدينة الأربع الرئيسية وكان أطولهما يمتد من

الباب الكانوبى إلى باب الجبانة « من الشرق إلى الغرب » والثانى يمتد من باب الشمس إلى باب القمر « من الجنوب إلى الشمال » وقد وصلت المسافة ما بين الأرض والجزيرة برصيف عريض تركت فى أسفله فتحات تسمح لمرور المياه بين كل من الميناءين الذين كونهما الرصيف وكان كل من هذين الميناءين من السعة بحيث يستطيع أكبر اسطول أن يرسو فيه وقد حميت كل ميناء بحواجز عند مدخلها تجعل السفن الواقفة فى الميناء بمأمن من عواصف البحر وفى الطرف الشمالى الشرقى لجزيرة فيروس كانت توجد المنارة العظيمة التى بدأ فى بنائها بطليموس الثانى وتمت فى عهد خلفه وكانت هذه المنارة مكونة من عدة طبقات يبلغ ارتفاعها نحو ٤٠٠ قدم وكانت تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع ولا يزال الفنار القديم فى الأسكندرية يحتل مكان هذه المنارة .

وكانت المدينة مقسمة إلى ثلاثة أحياء .

«ا» حى اليهود .

«ب» الحى الملكى أو اليونانى

«ج» الحى المصرى أو حى راقودة .

«ا» فأما حى اليهود فكان يقع فى الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة وكان يحيط به البحر وسور المدينة والحى اليونانى وكان كمعظم أحياء اليهود فى أوربا فى عصرنا هذا محاطا بسور وله بوابات خاصة وقد كانت هذه

الأسوار شديدة اللزوم لليهود إذ لم يكن بينهم وبين اليونان السكندريين أى وئام وكانت نيران العداوة مستعرة دائما بين الفريقين

«ب» أما الحى الثانى أو الحى الملكى أو اليونانى فكان يحده من الجنوب والشرق أسوار المدينة ومن الشمال الميناء الكبرى ومن الغرب حى رافودة والشارع الرئيسى الذى يصل بين باب الشمس وباب القمر عند الهيبا ستديوم « الرصيف الذى يصل الأرض بالجزيرة »

وكان لهذا الحى أسواره الخاصة أيضا وهو الذى تحصن فيه قيصر ضد أهل الاسكندرية وكان يقسم هذا الحى إلى قسمين الشارع الكبير الذى يمتد من البوابة الكانوبية إلى جبانة المدينة « النكروبوليس » وكانت تصل اليهم مياه النيل فى أنابيب أو قنوات تدخل المدينة من الجنوب وتمر بالقرب من نادى الألعاب وكان هذا الحى أهم أحياء المدينة ففيه قصر الملك . المنطقة التى توجد بها أهم وأضخم معالم المدينة وكان البطالسة يعملون باستمرار على تجميله وتوسيعه واليك بيان أهم المبانى التى كانت فيه إلى الشمال بجوار الميناء الشرقية كان يوجد قصر البطالسة تحيط به حملة قصور صغار لأبنائهم تكتنفها الحدائق والغابات الصغيرة ـ كذلك كانت توجد به المكتبة الشهيرة والمتحف والمسرح الذى كان مخصصا لالقاء المحاضرات وعقد الاجتماعات العامة وكانت تصل ما بين هذه المبانى أعمدة منحوته من الرخام المقطوع من المحاجر المصرية وتتخللها عدة مسلات وتماثيل لابى الهول منقولة عن آثار المدن الفرعونية ، وكانت المكتبة تحوى على بعض الأقـــوال

سبعمائة ألف مجلد وعلى قول آخر أربعمائة ألف مجلد وكان بعض هذه المجموعة التى لا تضارع مودعا فى معبد سيرابيس فى حى راقوده وقد أودع فى هذه المعبد المائتى ألف مجلد الذى جمعها ملوك برجامن وأهداها المرك انطانيوس إلى كليوباترا ولقد أصاب المكتبة حريق فظيع عندما كان يوليوس قيصر محاصرا فى الأسكندرية وينسب بعض المؤرخين من الافرنج أنه قد تمت إبادتها على يدعمرو قائد الخليفة عمر فى سنة ٦٥١م وسنعالج هذه المشكلة فى الفصل الثالث من هذا الباب . ولقد حل المتحف محل جامعة هليوبوليس القديمة فصار جامعة مصر المشهورة فى كل أنحاء العالم وكان بالمتحف قاعة كبيرة للمآدب يتناول الأساتذه فيها الطعام مع الناس ويحيط بها من الخارج ممر دائرى ذو أعمدة للتمرين والمحاضرات المتنقلة ومسرح كانت تقام فيه المجادلات العامة والمآدب المدرسية .

وفى هذا الحى أيضا كان يوجد معبد القياصرة التى كانت يعبد فيه الأباطرة أحياء كانوا أم أمواتا وعلى مقربة من هذا المعبد كان يوجد برج أطلق عليه اسم برج الرومان فاذا سرنا غربا فاننا نمر بمخازن الغلال العامة وبمقبرة بطالسة الفخيمة التى كانت تضم جثمان الاسكندر العظيم وفى هذا الحى أيضا كانت توجد المحكمة الكبرى حيث كان يجتمع الشيوخ ويمارسون الحقوق القضائية بقدر ما كانت تسمح لهم حكومة شبه مستبدة كحكومة البطالسة والتى كانت فيما بعد يعقد فيها قضاة الرومان جلساتهم ، وكان فى الحى علاوة على ما ذكر نادٍ

للألعاب وملعب «ايفيتريتو» ومكان للمصارعة وكانت كل هذه الأشياء من المناظر التى يتسلى بها سكان المدينة المرحين ـ وفى الناحية الغربية كان يوجد الارسنيوم وهو الأثر الذى أقامه بطليموس فلاديفوس تخليدا لذكرى اخته المحبوبة أرسينوه والبانيوم الذى كان عبارة عن تل أو مخروط من الحجر يحيط به سلم لولبى من الخارج يصعد الناس إلى قمته فيصبح كل شىء فى جميع أنحاء المدينة مرئيا له ـ على أن الغرض الحقيقى من بناء هذا البانيوم لا يزال مجهولا ولقد رتب المهندس دينوقراطيس هذه المبانى الواحدة بعد الأخرى بحيث كانت كلها تكشف الميناء الكبرى والفنار . وفى وسط هذه المباني كان يوجد ميدان فسيح تحيط به البواكى وتقع أمامه من ناحية الشمال أرصفة المدينة حيث الامبريوم أو السوق الاسكندرى العظيم وفى هذا المكان ظلت كل أمة من العالم المتمدين طول ثمانية قرون تبعث بممثليها وفى الحق ان الأسكندرية ورثت تجارة كل من صور وقرطاجنة وجمعت فى هـــذه البقعة من الأرض ثلاث قارات فى المتاجر والمضاربات .

جـ ـ حى راقوده أو الحى المصرى وكان يقع فى مكان قرية راقودة القديم وأشهر مبانيه مخازن الغلال ومعبد سيرابيس ولسنا ندرى هل أقيم هذا المعبد فى عهد بطليموس الأول أو الثانى وكان تمثال الاله الموجود فى هذا المكان مصنوعا من الخشب وذكر بعض المؤرخين أنه كان مصفحا بصفائح من مختلف المعادن النفيسة تقشها المعادن الكريمة وكان لون التمثال أسود وربما كان ذلك راجعا الى كثرة حرق

البخور حوله أو الى أنهم طلوه بهـذا اللون أما أصل التمثال ومن أين أتى به فأمر مشكوك فيه ـ ويرى بعض المؤرخين أن الاسكندرية التى فتحها العرب لم تكن إلا حى راقوده وسنعود لمعالجة هـذا فى الفصل الثانى ـ ولكم قاسى هذا الحى من الخروب الداخليـة كما قاسى من الغزو الخارجى ولقد التهمت النيران معبد السرابيوم مرتين مرة فى عهد مارقس أورليوس والاخرى فى عهد كومودوس ولكن على الرغم من كل هذه النكبات فانه عاش أكثر من حيبى اليهـود واليونان ـ إن لنا فيما كتبه الأقدمون عن الاسكندرية فى إبان إزدهارها خير وصف لما كانت عليه من جمال فائق ولم يكن تدهورهـا نتيجة كسر الزمان بل كان من صنع الانسان إن مناخها الجاف قـد حفظ كثيرا من آثارها وأبقى عليها ألوانها الزاهية على الرغم من كثر القرون ولما زارها الامبراطور هادريان سنة ١٢٠ م وجاس خلالها تراءت فى نظره وكأنها لانزال عروس البطالة البكر

والآن وقد أنتهينا من وصف الاسكندرية فى عهـد البطالسة والرومان فانا ننتقل الآن الى وصفها عند الفتح العربى.

« ٢ ـ وصف الاسكندرية عند الفتح العربى »

يبالغ كتاب العرب فى وصف الاسكندرية عند الفتح فيذكرون أرقاما يصعب تصديقها كقولهم إن الاسكندرية كان بهـا أربعـمائه مسرح وأربعـة آلاف حمـام وأربعه آلاف قصر واثنى عشر بائع

للخضر وان عدد سكانها كان ستمائة ألف من الرجال عدا النساء والأطفال من بينهم مائة الف من الروم وسبعين الفا من اليهود ولاشك أن هذه الأرقام فيها مبالغة سببتها الدهشة التى أصابت العرب عند رؤية مدينة لم يشاهد مثلها من قبل - ويرى بعض المؤرخين ومن بينهم بتلر أن خطأ وقع فى نسخ الكتاب الذى بعث به عمرو إلى الخليفة بعد فتح الأسكندرية وأن الخطأ ناجم عن إضافة صفر على يمين هذه الأرقام - ويقول بتلر إنا إذا قرأنا أربعمائة قصر وحمام بدل أربعة آلاف الخ لما كان فى التقرير شيء غير ممكن وقد جاء نص كتاب عمرو إلى الخليفة فى ابن عبد الحكم وابن بطريق والمقريزى وغيرهم ونحن نثبت نصه هنا كما ورد فى المقريزى ج ١ ص ٢٦٨ ؟ أما بعد فأنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير انى أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين الف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك؟ وذكر المقريزى بعد ذلك نقلا عن أبى قبيل أن عمرا لما فتح الأسكندرية وجد فيها أثنى عشر الفا يبيعون البقل الأخضر وترحل من الأسكندرية فى الليلة التى دخلها عمرو وفى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو سبعون الف يهودى - وروى المقريزى أيضا - أنه كان بالأسكندرية فيما أحصى من الحمامات اثنى عشر ألف ديماس (بناء بعقد) أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس كل مجلس يسع جماعة نفر وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف رجل فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها

ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل وبقى من بقى من الأسارى من بلغ الخراج فأحصى يومئـــذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو فى قسمها فكان أكثر الناس يريد قسمها فقال عمرو لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمـــير المؤمنين فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها فكتب إليه عمر لا تقسمها وذرها يكون خراجها فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها ففرض عليهم الخراج اهـ المقريزى والحق يقال إن الاسكندرية وإن لم تكن تلك الأوصاف التى ذكرها المؤرخون صحيحة الا أنها كانت بلا شـك مدينة رائعة فخمة وكانت كما وصفها أحدهم يكثر المرمر فى أرضها وبنائها وعمدها فتبدو بيضاء لامعة فى النهار والليـــل وكان الرهبان يلبسون الثياب السود لهذا السبب وفى الليالى المقمرة ـ وروى بعض المؤرخين أن ضوء القمر كان اذا وقع على الرخام الأبيض بالليل جعله يضيء حتى ان الحائك كان يستطيع أن يضع الخيط فى الابرة بغـــير أن يستضيء بمصباح وما كان أحـد يستطيع أن يدخل المدينة الا اذا اتخذ لعينيه غطاء من خرق سود يقيهما بهر الطلاء والمرمر .

لقد قلنا فى الفصل السابق إن الاسكندرية التى فتحها العرب لم تكن إلا رقوده وليس معنى هذا أن الحيين الآخرين حى الروم وحى اليهود لم يكن لهما أثر إذ الواقع أن أشهر معالمها كانت لا تزال قائمة ـ ولقد كانت دهشة العرب من تخطيط المدينة وتقاطع شوارعها لا تقل

عن دهشتهم من فخامة مبانيها ومما لفت النظر الصهاريج التى كانت تخزن فيها المياه والتى كانت مشيدة من طبقات بعضها فوق بعض .

كذلك أعجبت العرب منارة الأسكندريه المشهـورة التى كانت تقع فى الطـرف الشرقى من جزيرة فاروس وقد روى السيوطى - أن طولها كان أكثر من ثلاثمائة ذراع مبنية بالحجر المنحوت مربعة الأسفل وفوق المنارة المربعة منارة مثمنة مبنية بالأجر وفوق المنـارة المثمنة منارة مدورة مبنية بالصخر المنحوت على اكثر من مائتى ذراع وكان عليها مرآة من الحديد عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيهـا جميع من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم فان كانوا أعداء تركرهم حتى يقربوا من الأسكندرية فاذا قربوا منها ومالت الشمس للغروب اداروا المرآة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن حتى يقع شعاع الشمس على ضوء المرآة فتقع على السفن فتحرقها ولا نعلم هل كان مرآة المنارة من زجاج أم من حجر شفاف كما إنا لا نعلم بالضبط كيفية إشعالها بالليـل وقد ذكر المقريزى أنه كان فى المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل ويقصد ركاب السفن تلك المنارة على بعد فاذا رأى أهل المنار ما يريبهم اشعلو النار من جهة المدينة فاذا رآها الحرس ضربوا الابواق والاجراس فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو ويميل بتلر إلى الرأى بأن الوصف الذى ذكره العرب للمنارة يمكن أن يعد تنبئوا لاستعمال المنظار المقرب لأنه ينطبق على وصف العدسه الضوئية أكثر من وصف المرآه وهو لا يستبعد أن تكن مدرسة الأسكندرية العظمى قد كشفت سر العدسة

الضوئية وصنعتها ثم نسى أمر هذ السر بعد تخريب المنارة، ثم هو يقول إن مساجد القاهرة وإن اختلفت أشكالها ورسومها لا تزال كثيرة منها على رسم منارة الأسكندرية فهى برج قاعدته مربعة ثم تصير بعد ذلك مثمنة الأضلاع ثم تدق بعد ذلك ويستدير شكلها ثم يعلوها عند القمة مصباح .

أما تحطيم هذه المرآة فقد ذكر السيوطى وغيره أن ملك الروم إحتال لما انتفع بها المسلمون فى ذلك على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خواصه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب فى الاسلام فوصل إلى الوليد وأظهر الاسلام وأخرج كنوزا ودفائن كانت بالشام مما حمل الوليد على أن صدقه على أن تحت المنارة أموالا ودفائن وأسلحة . . . فجهزه مع جماعة من ثقاته إلى الاسكندرية فهدم ثلث المنارة وأزال المرآة ثم فطن الناس أنها مكيدة فاستشعر ذلك فهرب فى مركب كانت معدة له ثم بنى ما تدم بالجص والآجر .

وقد أعجب العرب أيضا المسلتين المصنوعتين من حجر الجرانيت واللتين كانتا قائمتين أمام كنيسة القيصريون التى كانت من أهم الكنائس وأعظمها وقد كانت فى الأصل معبد أوثينا بنته كليوباترا إعظاما لقيصر ثم أتمه أوغسطس ثم تحول فى عهد قلسطنطين إلى كنيسة مسيحية ولكنه كان فى عهد الفتح العربي لا يزال محتفظا باسمه القيصريون — كذلك شاهد العرب بناء السرابيوم وهو طائفة من المباني ذات الجمال الرائع كان لها أثر عظيم فى نفوس العرب وكان

واقعا فى المكان الذى يقوم فيه اليوم عمود دقلديانوس الذى يقرن ذكر السرابيومى عادة به ـ وعمود دقلديانوس هذا هو الذى سماه العرب بعمود السوارى ـ وقد قال المقريزى إن هذا العمود حجر أحمر فقط وهو من الصوان المانع كان حوله نحو أربعمائة عمود كسرها والى الأسكندرية فى أيام صلاح الدين الايوبى ورماها بشاطىء البحر ليوعر على العدو سلوكه وهو يذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق ارسطاطاليس ـ وللمؤرخين العرب أقوال أخرى عجيبة فى هذا العمود ـ فقيل إنه كان جزءاً من معبد بناه سليمان عليه السلام وذكر المقريزى والسيوطى أن الانسان إذا حاذاه عن اقرب وغمض عينيه ثم قصده لا يصيبه بل يميل عنه والاستاذ بتلر لا يطمئن إلى معظم هذه الأقوال التى وصف بها مؤرخو العرب أبنية الاسكندرية وهو يقول ان هذا القصص ان دلت على شىء فانما تدل على دهشة العرب من الأبنية التى صارت ملكالهم ولكنه يطمئن بعض الاطمئنان الى بعض ما جاء فى تلك الأوصاف كاطمئنانه الى الوصف الذى أورده المقريزى بالسرابيوم حيث قال ؟ وكان فى الأسكندرية قصر عظيم لا يماثله قصر فى بلاد العالم قائم على تل تجاه باب المدينة طوله خمسمائة زراع وعرضه على النصف من ذلك وبابه من أعظم بناء واتقنه كل عضادة منه حجر واحد وعتبته حجر واحد وكان فيه نحو مائة أسطوانة وبأزائه أسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها غلظها ستة وثلاثون شبرا وعلوها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك

بناء وتحتها قاعة حجر أحمر محكم الصناعة عرض كل ضلع منه عشرون شبرا فى اعتبار ثمانية أشبـــار والاسطوانة منزلة فى عمود من الحديد قد خرقت به الأرض فاذا اشتدت الرياح تحرك إلى أن قال وقد زعم قوم أنها مما عمله الجن لسليمان بن داود عليهما الســـلام كما هى عادتهم فى نسبة كل مايستفظعون عمـله الى أنه من صنيع الجن وليس كذلك بل كانت مما عمله القدماء من أهل مصر .

كذلك كان من الاشياء التى لفتت انظار العرب الملعب العظيم الذى قال المقريزى عنه إنه يتسع لألف ألف من الناس فلا يكون فيه أحد إلا وهو ينظر وجه صاحبه ثم إن قرأ كتاب سمعوه جميعا أو لعب لون من اللعب رأوه عن آخرهم لا يتظاهرون فيـه أكثر من مراتب العلية والسفلة وهذا الوصف كما قال بتلر ينطبق على ميـدان السباق فى خارج المدينة مما يلى الباب الشرقى .

إلى هنا ينتهى ما أردنا اثباته عن وصف الأسكندرية عند الفتح العربى ولم نشر فى هذا الوصف الى كل شىء كما أنا لم نشر الى مكتبة الأسكندرية لأنا سنعالج فى الفصل التالى تاريخ هذه المكتبـه من بدىء تأسيسها الى ان أبيدت .

٥ ـ مشكلة مكتبة الاسكندرية

أسس هذه المكتبة والمتحف بطليموس الأول وزاد عليها كثيرا ابنه بطليموس فلاد لفوس ولما مات هذا الثانى قيل إن عدد ما كان فى

فى المكتبة من مخطوطات مائه ألف وكانت هذه المخطوطات يرتبها حسب الموضوعات وينظمها ويضع عليها البطاقات عالم يسمى كاليماكوس ويعتبر المؤرخون أن متحف الاسكندرية كان فى الواقع ونفس الأمر أول جامعة علمية شهدها العالم وكان علماؤها جماعة من رجال الدين لم يقصروا بحثهم على المسائل الدينية بل تطرقوا إلى بحث مسائل كل العلوم العقلية وغيرها فكان هذا المتحف مجمعا للعلماء يقومون فيه بأعمال التدريس إلى جوار بحوثهم ومدوناتهم ولقد قال المؤرخ ولز إن متحف الاسكندرية كان يمثل فى الجيل الثانى . الثالث من تأسيسه مجموعة زاهرة من العلماء الأعلام لم تشهد مثلهم حتى أيدنا فى إبان عظمتها وكانت بحوثهم العلمية والرياضية والجغرافية غاية فى الدقة والضبط وكان من بين تلاميذ هذه الجامعة إقليدس صاحب الهندسة الذى لا يجهل اسمه أى طالب صغير وابراتوستينيس « أرطستينى » الذى قاس حجم الأرض وعرف محيطها بدقة ووصل إلى أرقام لا تختلف إلا فى شىء بسيط عما وصل إليه أعظم العلماء الآن بآلاتهم الدقيقة - وأبولونيوس الذى ألف لأول مرة فى القطاعات المخروطيه - وهيباركس الذى رسم خريطة للسماء وبين مواضع النجوم ودون حركاتها - وهيرو .. الذى اخترع أول آلة بخارية ولقد جاء إلى الاسكندرية أيضا أرشميدس وطلب العلم فى جامعتها وظل مدة طويلة يراسل بلاد اليونان - ولم تكن العناية بالبحوث الطبيه بأقل من العناية بالكيمياء والجغرافيا وكان من أشهر علماء الطب فى الجامعة هيروفيلوس الذى كان بارعا فى التشريح والذى قيل إنه كان يجرى تجاربه

على جثث بعض المجرمين المحكوم عليهم وإلى جوار هيروفيلوس كان يوجد جماعة من العلماء يعارضونه فى دراسة التشريح ويعالجون دراسة الصيدلة والعلاج بالعقاقير ـ ولكن هذا الازدهار العلمى لم يعش أكثر من قرن وذلك لأن الدراسة فيه لم تكن مباحثة لكل النـــاس وكان المتحف والمكتبة الملحقة به يعتبران على حـد تعبير العلامة ولز كلية ملكية ينفق فرعون على أساتذتها وطلبتها ويعينهم فى وظائفهم وذلك على خلاف مدارس أثينا ومجامعها العلمية التى كانت تحت رعاية الشعب ولم تكن تتأثر بأمزجة الملوك وكراهيتهم للعلم أو تشجيعهم له ومن أجـــل ذلك ظل المتحف والمكتبة مزدهرتان أيام بطليموس الأول وبطليموس الثانى ثم خبا الازدهار بالتدريج فى عهد أخلافهم وتسلط الكهنـة على البطالسة الضعاف فلم يكد يمر قرن على تأسيس المتحف حتى انطفأت فيه جذوة التفكير العلمى الحر .

ولقد أنشأ بطليموس الأول كما قلنا مكتبة بجـانب المتحف ولم تكن هذه المكتبة مكتبة فحسب بل دار نشر أيضـا تشرف على كل منهما الحكومة وكان إذا هبط غريب الاسكندرية بكتاب أخذ منه ذلك الكتاب ونسخت منه صور بعـدد طـلاب الجامعـة وأساتذتها ثم حفظت النسخة الأصلية ووضعت مع الكتب وأعطى نسخة بدلها ـ وقد كان ملحق بالجامعـة جيش من النساخ ينسخون الكتب الذى تفيد الشعب ويبيعونهـا له ويتولى الاشراف على كل هذا أمين المكتبة كاليماكوس الذى أشرنا اليه والذى ظل يدير المكتبة

وينظمها فى عهد بطليموس الثانى والثالث ويجب أن لا يعزف عن بالنا أن الكتب فى ذلك العصر لم تكن على غرار كتبنا الآن ذات صفحات بل كانت لفائف تطوى على أساطين صغيره وكانت المؤلفات الكبيرة توزع على عدة لفافات وكم يؤم مكتبة الاسكندرية عدد اضخم من الذين يجلسون الى الاساتذة فى المتحف ويهرع اليها من كافة أطراف الأرض زوار وطلاب كان ايواءهم يدر الخير الكثير على سكان الاسكندرية ـ ولقد قلنا أن عدد المجلدات فى المكتبة وصل الى مائة الف عند موت بطليموس الثانى ونزيد هنا أن العدد أخذ يتضاخم حتى بلغ فى أول عهد كليوباترا أكثر من ٧٥٠ الف مجلد ولقد أحرق كل ذلك العدد فى عهد يوليوس قيصر وحزنت كليوباترا لذلك حزنا شديدا فأهداها أنطونيوس مائتى ألف مجلد هى أهم ما كان فى مكتبة برجامن فى آسيا الصغرى فكان هذا العدد نواة مكتبة الاسكندرية الثانية

ولقد أشرنا فى الفصل الأسبق إلى معبد السرابيوم الذى بناه بطليموس سوطر وأقام فى وسطه تمثال الآله سيرابيس (أوزيرس أبيس) وكان هذا المعبد يقع فى حى رافوده إلى الغرب من الاسكندرية على مقربة من عمود السوارى وقلنا إن هذا المعبد كان يضم مجموعة من أجمل أبنية العالم وتملأ نواحيه التماثيل الفذة والتحف الفنية الرائعة فحطمه ثيوفيلوس بطريق الاسكندرية المسيحى المتعصب فى عهد ثيودوسيوس الثانى وتيوفيلوس هذا هو الذى قال فيه المؤرخ جيبن إنه

كان عدو السلام والفضيلة وكان يغمس إحدى يديه فى التبر والأخرى فى الدماء وكانت مكتبة السرابيوم هذه تضم ثلاثمائة ألف مخطوطا هى التى قيل أن عمر ابن العاص أحرقها بأمر الخليفة عمر سنة ٦٤١ م والتى كانت من الكثرة بحيث ظلت حمامات الاسكندرية تحرق فيها ستة شهور متتالية وهذه الرواية الأخيرة هى التى نريد أن نناقشها فى هذا المكان ويجب أن نلاحظ أن قصة حرق المكتبة لم تذكر فى المراجع القبطية ولا الرومية ولا الاسلامية القريبة العهد بالفتح ولكنها ذكرت بعد تمام الفتح بستة قرون وكان أول من ذكرها أبو الفرج ابن العبرى فى تاريخه مختصر الدول وتتلخص القصة التى أوردها أبو الفضل وتلقفها من بعده أبو الفداء وعبداللطيف البغدادى والمقريزى فيما يأتى :-

كان من بين أهل الاسكندرية رجل يسمى يوحنا الغراماطيقى والظاهر أنه كان من قسوس القبط وأنه أخرج من عمله لزيغ فى عقيدته وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة انعقد فى حصن بابليون وقد أدرك الرجل عصر الفتح العربى وشاهد دخول العرب الاسكندرية واتصل بعمرو فلقى عنده حظوة وأعجب عمرو بغزارة علمه ؛ ووفرة ذكائه ؛ فلما أنس الرجل من عمرو ذلك الاقبال قال له يوما لقد رأيت المدينة كلها وختمت على مافيها من التحف ولست أطلب إليك شيئا مما تنتفع به بل شيئا لا نفع له عندك وهو عندنا

نافع واستوضحه عمرو مقصده فقال إنه يطلب ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة فقال عمرو إن ذلك أمر لا أستطيع أن أقطع برأى فيه دون إذن الخليفة وأرسل عمرو إلى الخليفة كتابا فرد عمـــر قائلا أما ما ذكرت من أمر الكتب فاذا كان ماجاء فيها يوافق ما جاء فى كتاب الله فكتاب الله يغنينا عنه وإذا كان يخالفه فلا أرب لنا فيه وتضيف بعض الروايات على كلام عمر قوله فاحرقها فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات الأسكندرية لتوقد بها فازالوا يوقدون بها ستة أشهر ثم قال المؤلف فاسمع وتعجب ـ هذا هو ملخص القصة التى ذكرت لأول مرة فى الكتب عن حريق الأسكندرية ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذكرها حتى إن افتيكيوس بطريرق الأسكندرية مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة

وقد أشار عبد اللطيف البغدادى فى كتابه الافادة والاعتبار إلى قصة الحرق دون أن يتعرض لشرحها وإليك نص ما قاله « ورأيت أيضا حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحـــة وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الأسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه .

وفى المقريزى عند الكلام على عمود السوارى مانصه ! ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذى كان يدرس به الحكمة وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقد تصدى جمهور من المؤرخين الأوربيين بعد ترجمة كتاب أبى الفرج إلى اللاتينية الى القصة فأخذوا يشيعونها ويظهرون بغضهم واحتقارهم للمسلمين ـ ومن المؤرخين المصريين الذين تناولوا هذه القصة أيضا جورجى زيدان فقد أيدها أولا ثم عاد فنقضها وعاد فأيدها مرة ثانية .

ويؤمن بصحة القصة أيضا العلامة بدج وهو يفند أقوال جيبن ورينودوت اللذان يرفضانها ويعتبرانها غير معقولة ولا يرى سببا داعيا لرفضها ويقول إن الحجة التى يدلى بها جيبن من أن المكتبة انتهبت ودمرت فى الوقت الذى يتوفيلوس بطريق الاسكندرية دمر فيها تمثال سيرابيس لاتعتبر برهانا كافيا وأن الراجح أنها ظلت سليمة الى وصول عمرو بن العاص الى الاسكندرية وعلى الرغم من وجود أفراد قلائل يؤيدون هذه القصة ، الا أن السواد الأعظم من المؤرخين يرفضها .

فالأستاذ موير يقول فى كتابه تاريخ الخلافة ان قصة حرق مكتبة الاسكندرية اخترعت فى عصر متأخر والأستاذ لين بول يقول

مانصه : إن قصة تدمير مكتبة الإسكندرية وتوزيع كتبها على
أربعة آلاف حمام لاتوجد فى المراجع القديمة فلم يشر إليها مؤرخ يونانى
ولم يذكرها يوحنا النيقيوسى ولا ابن عبدالحكم ولا الطبرى وأنها إنما
ظهرت فى القرن الثالث عشر أى بعد ستمائة سنة من فتح الاسكندرية
وظهرت فى مؤلفات عبد اللطيف والبغدادى ثم قال انها تخالف تماما
سياسة عمرو التى وصفها حنا النيقيوسى بأنها كانت سياسة حماية ويقول
أن القصة ربما ترجع فى أصلها الى تدمير كتب المجوس أثناء الفتح
العربي لفارس - وقد عقد كتاب تاريخ العالم للمؤرخين فصلا جميلا
عنوانه حريق مكتبة الاسكندرية المزعوم نقل فيه ماأورده جبين فى
كتابه عن الدولة الرومانية وقد أورد فيه النص الذى ذكره أبو الفرج وأشير
اليه آنفا وكان مما قاله أنه ليس من المعقول أن نعتمد على مرجع واحد
كتبه غريب فى أطراف ميديا عن حادث لم يشر اليه مؤرخين من عصر
سابق بعضهم مسيحيين وبعضهم مصريين وأقدمهم البطريرك
أوتيخيوس - إيفتكيوس - الذى وصف فتح الأسكندرية وصفا
مسهبا وإن الحكم الذى ينسب إلى عمر ليخالف ما عرف عن المسلمين
من أهل السنة الذين أعلنوا أن كتب اليهود والمسيحيين يجب أن
لاتسلم إلى النيران وأن للمسلمين أن ينتفعوا بكتب العلم والشعر والتاريخ
والفلسفة ولسنا نستعيد إلى الذاكرة الكوارث التى حلت بمكتبة
الأسكندرية ولا النيران التى أشعلها قيصر أثناء دفاعه عن نفسه و
التعصب الذى حمل المسيحيين على تحطيم كل أثار الوثنية ولكننا إ

استعرضنا التاريخ من عهد الانطوانيين إلى عهد ثيودوسيوس لوجدنا سلسلة من الشهود المعاصرين تؤيد أن القصر الملكى ومعبد سير بيس لم يعودا يحتويان الأربعمائة أو السبعمائة الف مجلد التى جمعها البطالسة فى أيام زهائهم .

ونقض مؤرخون آخرون غير جيبن القصة أيضا ومن بينهم بعض المعروفين بكراهيتهم للمسلمين ومن بينهم إرنست رينان الفرنسى الذى روى الأستاذ كرد على فى كتابه الاسلام والحضارة العربية أنه قال من خطاب له فى المجمع العلمى الفرنسى ان العلم والدين الاسلامى لا يجتمعان بيد أنه لا يعتقد أن عمرا هو الذى أحرق خزانة الاسكندرية لأنها أحرقت قبله بزمن طويل - وورد أيضا فى كتاب الاسلام والحضارة لكرد على أن بونيه مورى فى كتاب الأسلام والنصرانية فى افريقية قال ما نصه ؟ يجب أن نصحح خطأ شاع فى طول القرون الوسطى وهو أن العرب أحرقوا خزانة الأسكندرية بامر الخليفة عمر والحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا أشد اعجابا بعلوم اليونان وفنونهم من أن يقدموا على عمل كهذا كما أنه معلوم من أن قسما من تلك الخزانة كان احترق فى أثناء ثورة الاسكندرية التى بادفيها أسطول قيصر (٤٧ ق . م) وأن قسما آخر أحرقه النصارى فى القرن الثالث واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط منفيس ولم يتعرضوا لهم فى دينهم وعاداتهم وأطلقوا لهم الحرية فى انتخاب البطريرق وبناء الكنائس وغاية ما أبطل عمر ومن العادات القديمة هو

ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين من رمى فتاة فى النيل كل سنة التماسا لفيضانه

ويرى بتلر أن قصة الحرق قد ورد مثلها فى شأن إحراق كتب الفرس وأن أبا الفرج نقلها وعزاها الى الأسكندرية وأن شعور المسلمين نحو كتب الفرس الوثنيين يخالف شعورهم نحو كتب المسيحيين وقد جمع بتلر فى الفصل الذى عقده لمكتبة الأسكندرية أدلة على دحضها وأبطال هذه القصة نلخصها لك فيما يأتى

١ ـ ان قصة الحرق لم تظهر إلا بعد نحو ستة قرون من وقت الحادثة التى تذكرها وان الخلاف بين من ذكروها بعد هذه المدة عن مدة الأبقاء بالكتب يضعف من صحة القصة

٢ ـ ان القصة ولو انها خلابة المظهر والرد الذى بعث به عمر أشبه شىء بكلامه إلا أن ما تضمنته بعد تحليلها وفحصها من سخافات يجعلها مستبعدة لا يطمئن اليها العقل وهو يرى أن عمرا لو أراد إحراق الكتب لأحرقها حيث هى فى فترة قليلة بدل توزيعها على حمامات الأسكندرية مدة ستة شهور وأن المادة التى صنعت منها الكتب كانت فى معظمها من الرق البردى والرق لا يصلح للوقود وفوق هذا فان التمحيص الحسابى البسيط على فرض أنها كانت من ورق البردى يجعل عدد الكتب وعدد الحمامات وعدد الأيام التى أحرقت فيها يجعلها شيئا مضحكا لا يقبله العقل .

٣ ـ إن الرجل الذى تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها وهو

حنا فيلوبونوس « الغراماطيقى » مات قبل زمن الفتح بأربعين سنة تقريبا .

٤ » إن القصه تشير الى واحدة من مكتبتين الأولى مكتبة المتحف وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحدثه قيصر « ٤٧ ق م » يؤيد ذلك ما أورده بلوتارك إذ قال إن قيصر لما رأى أسطوله يقع فى يد عدوه اضطر أن يدفع الخطر بالحريق فامتدت النار من المراسى فى الميناء فاحرقت المكتبة ـ وأما الثانية وهى مكتبة السرابيوم التى كانت نواتها مكتبة ملوك برجاموس التى منحها مارك أنطونى لكليوباترا وهذه إما أن تكون قد نقلت من معبد السرابيوم قبل سنة ٣٩١ م وإما أن تكون قد هلكت وتفرقت كتبها فى النصف الثانى من القرن الرابع على يد تيوفولوس الذى هدم معبد سرابيس سنة ٣٩٠م كما هدم القيصريون قبل ذلك فى أثناء نضال دينى مع عبدة الأوثان المصرية القديمة وعلى أى حال فان هذه المكتبة قد اختفت قبل الفتح العربي بقرنين ونصف من الزمان .

٥ » وأكبر دليل على اختفاء هذه المكتبة أن كتاب القرنين الخامس والسادس لم يشيروا إلى وجودها وكذلك كتاب الصدر الأول من القرن السابع .

٦ » أن هذه المكتبة لو كانت موجودة عند الصلح الذى عقده قيبر مع العرب لكان من المؤكد أن ينقلها الرومان وقد أبيح لهم أن ينقلوا فى مدة الهدنة ما يشاءون من أموال ومتاع ولم تكن الهدنة قصيرة

لم تسمح بنقل الكتب بل كانت طويلة مدتها أحد عشر شهرا تسمح بنقل أضعاف اضعاف هذه الكتب الثمينة

٧) أن العرب لو أنهم أتلفوا المكتبة لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم كحنا النيقيوسى الذى ضمن ديوانه الأخبار المفصلة عن حوادث الفتح التى لم يفصل بينها وبينه إلا خمسين عاما

- «الباب الخامس» -

- الفسطاط - جامع عمرو - خليج أمير المؤمنين -

«الفسطاط»

لا شك أن المسلمين بعد فتح مدينة الاسكندرية التى وصفنا عظمتها وأثرها فى نفوس العرب فى الباب السابق كانوا يطمعون فى أن يتخذوها دار أقامة لهم وعاصمة للمستعمرة الجديدة ولكن خطوة كهذه ما كان عمرو يستطيع الأقدام عليها بدون أن يأخذ من الخليفة إقرارا بهذا فكتب اليه يستشيره فى الأمر إذ قال إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم شتاء ولا صيفا فمتى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم اليكم قدمت ويصف له المدينة وكان رسوله معاوية ابن حديج ورد الخليفة ردا عرف منه عمرو أنه لا يوافق على أن يطوح بالمسلمين فى هذا المكان البعيد الذى يفصله عن بلاد العرب شبكة من الأنهار والترع ، ويقول مساكن قد كفيناها وكان

المعروف عن الخليفة أنه يريد أن يكون دائما على اتصال سهل بالمسلمين في البلاد المفتوحة: فعل هذا بالعراق، وفعله بالشام، وهو الآن فعله بمصر، ومن أجل ذلك اضطر عمرو إلى البحث عن موضع آخر صالح لأن يكون عاصمة للحكومة الجديدة:

وقد بينا في الفصول السابقة أن العرب قد اتخذوا لهم مركزا حربيا في الفضاء الذي يقع إلى الشمال والشرق من حصن بابليون وسط الحدائق والكنائس ونذكر هنا أن عمرا عندما بدأ في التحرك لفتح الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه، فاذا فيه يمامة قد فرخت، فقال عمرو، لقد تحرمت منا بمحرم؛ فأمر به فأقر كما هو، وأوصى به صاحب القصر، فلما قفلوا من الاسكندرية قالوا أين ننزل، قالوا الفسطاط، يعنون فسطاط عمرو الذي خلفه بمصر مضروبا لأجل اليمامة فغلب عليه ذلك، وكان موضع الفسطاط المذكور، موضع الدار التي تعرف اليوم بدار الحصار، عند دار عمرو الصغيرة بمصر، ذكر هذا ابن تغري بردي في كتابه، وعلل به سبب تسمية مصر بالفسطاط، وذكر مؤرخون آخرون من بينهم ياقوت: أوزان أخرى لهذا الاسم، منها: الفسطاط والفستاط، والسطاط وفساط بضم أوائلها جميعا أو كسرها ولكن بعض المؤرخين يرى أن هذا الاسم لا علاقة له بفسطاط عمرو، وأن اللفظ إنما هو مشتق من الكلمة الرومانية «فسانم» وهو لفظ روماني كان شائعا في وقت الفتح على المعسكر وكان الرومانيون في حصن بابليون إذا ذكروا

معسكر العرب سموم الفسطاطون فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ — فسواء أكان رأى هؤلاء ام اولئك هو الصحيح ، فان تشابه اللفظ العربى مع اللفظ اليونانى هو بلا شك مصدر الخلاف فى سبب تسمية هذه المدينة التى تعتبر أول مدينة إسلاميه أسست فى مصر — فلقد قال المقريزى — إن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مصر ، فيما بين النيل والجبل الشرقى ، الذى يعرف بالجبل المقطم ، ليس فيها من البناء والعمارة ، سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع ، وبالمعلقة ، ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القاصرة ملوك الروم عند نزوله من مدينة الأسكندرية ويقيم فيه ما شاء ثم يعود إلى دار الامارة ومنزل الملك من الأسكندرية ، وقد حدد علماء الآثار موقع الفسطاط القديمة فقالوا : انها كانت تمتد شرقا حتى قرب سفح المقطم ، وشمالا حتى جهة فم الخليج ، وغربا حتى النيل وجنوبا حتى ساحل أثر النبى ويتوسطها جامع عمرو أو المسجد العتيق الذى سنتكلم عنه فى الفصل الثانى .

والرأى الشائع بين جمهور المؤرخين ، والتى تؤيده الروايات ، أن الفسطاط بنيت بعد فتح الاسكندرية ، ولكن بعض المؤرخين كالبلاذرى يرى أنها بنيت بعد فتح حصن بابليون ، ويرجح بتلر — أن بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية ، وقبل جلاء الروم عنها وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة ذات شأن كبير عندما قضى عمر ، بعدم المقام فى الاسكندرية ، وهو يستبعد أن تكون المدينة قد

جعلت على اختطاطها مدينة عظيمة ، أو أنه كان يقصد منها أن تكون عاصمة للمسلمين ، وأنه انما اضطر الى البناء خارج أسوار حصن بابليون إذ ساءت حال الجنود فى الحصن ونغص عليهم عيشهم ، فرأى أنه ليس من العدل ولا من المستحسن أن يخرج المسلمون أهل مصر من ديارهم ليحلوا محلهم ، وساعد على البناء خارج الأسوار ، أن الحرب قد وضعت أوزارها ، وأن المسلمين قد أمنوا الكيد أن يأتيهم من جانب ذلك الاقليم .

لا شك إذا أن الفسطاط نشأت بلدة صغيرة ولكنها لم تلبث بمرور الأعوام أن نمت نموا سريعا ، حتى بلغت فى خلال الخمسة قرون التى تلت انشاءها فى سنة ٢١هـ مبلغا من الحضارة والمدنية عظيما ، فاختطت فيها الشوارع والحارات ، والميادين الفسيحة ، والبساتين الناضرة ، وشيدت فيها المبانى الفاخرة ، من مساجد ، ومدارس ، وحمامات ، وخانات ، وفنادق ، وأسواق ، ودور للصناعة والتجارة ، عدا ما أقيم فيها من القصور العامرة التى تفوق حد الوصف ، والتى جعلت المدينة من أمهات المدن الاسلامية ، وما زال أمرها كذلك حتى أصابها حريق هائل فى سنة ٥٦٧هـ دام بها زهاء شهرين فدفن تحت أطلالها كثيرا من مدهشات الصناعة والعمارة العربية ، واستحالت إلى أكوام من الأتربة ، لا ينتفع إلا بسمادها وما عسى أن يوجد فيها أو على مقربة من سطحها من مواد البناء ، وما زالت كذلك حتى أتيح لها فى أوائل هذا القرن أن تكشف مصلحة الآثار العربية عن بعض

أنقاضها فكشف العالم الأثرى على بك بهجت بين سنة ١٩١٢ : ١٩١٩م عن نحو الخمسين دارا قائمة كلها على الصخر مباشرة وهى حسنة التنسيق مختطة على نظام هندسى يوفر لها الضوء والهواء ، ولا تخلو هذه الدور التى كان بعضها مشيد بالآجر وبعضها بالحجارة من حديقة ونافورة ماء وهذا عدا ما استكشف من بقايا بعض معاصر الزيوت والكنائس وجزء من سور صلاح الدين «راجع الفسطاط للأستاذ حسن الهوارى ومدينة الفسطاط للأستاذ يوسف احمد» والفسطاط على بك بهجت

ظلت الفسطاط مقرا للحكم فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين؛ وكان قلب المدينة حيث جامع عمرو تقوم حوله الأسواق ، والمصانع ، والحمامات ، والخانات ، ونحوها من أسباب العمران ، وكانت فى مبدأ أمرها مقسمة إلى قسمين شمالى وجنوبى ، وكل منهما مقسم إلى قسمين شرقى ، وغربى ، وقد اختط عمرو بجوار الجامع داره الكبرى وكان يفصل بينهما طريق ، ثم اختطت القبائل بعده خططها وهى احياء منفصلة كانت بيوتها فى بادىء الأمر طبقة واحدة ساذجة ثم أخذت الدور تزداد فى الاتساع والعلو شيئا فشيئا حتى صار ارتفاع أغلبها من خمس إلى ست طبقات يسكن الدار منها عدد يقرب المائتى شخص وكان أسفل الدور أو الطابق الأرضى يتخذ مخازن لعدم جفافه وقلة وصول الشمس والضوء إليه وقل أن كانت تخلو دار من حديقة فى داخلها أو بئر وأحواض لخزن المياه وبركة « فسقيه » وكان أشهر الخطط فى أول عهد المدينة ، خطة أهل الراية ، وهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم

من العدد ما ينفرد به بدعوة من الديوان فجعل لهم عمرو راية لم ينسبها إلى أحد يكون وقوفهم واجتماعهم تحتها » وخطة مهره ، وخطة نجيب وخطط لخم ، واللفيف ، ويحصب ، وبنى وائل ، القبض ، والمعاقر ، والسلف بن سعد ، ووعلان ، وخولان ، ومذحج ، ورعين ، وبنى الكلع والصدف ، وسبأ ، والرجبه ، والفارسين « بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن الذين حضروا فتح مصر » وأهل الظاهر ، وغافق ، والحمراوات الثلاث ، الدنيا ـ والوسطى والقصوى ، «راجع تفصيلها فى الجزء الثانى من المقريزى » ٦٥ ـ ٨٦ هـ

ولم يكن للولاة فى الفسطاط دار خاصة للحكم إلى أن ولى مصر عبد العزيز بن مروان فبنى قصرا أسماه المدينة لكبره واتساعه حلى قبابه بالذهب ـ وفى أثناء مطاردة العباسيين لمروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية سنة ١٣٢ هـ جاء إلى مصر أبو عون وأبو صالح قائدا جيوش العباسيين فأسسا مدينة فى الشمال الشرقى من الفسطاط أطلق عليها العسكر ، وشيد أبو صالح فى وسطها قصرا دعاه دار الامارة وقد كشفت دار الآثار العربية بعض بقاياها بناحية أبى السعود فاتخذه الولاة العباسيون لسكنهم إلى زمن أحمد بن طولون ـ ولما ولى أحمد ابن طولون حكم مصر سنة ٢٥٤ هـ اتخذ دار الامارة التى بناها أبو صالح مقرا له ، ولكنه ما لبث أن رأى أن الفسطاط والعسكر لا تتسعان لجنده وحاشيته فبنى قرب الجبل المسمى يجبل يشكر القائم فى الجهة الشمالية الشرقية من العسكر مدينة سماها القطائع وبنى جامعه فوق

جبل يشكر وشيد فيها قصرا وميدانا فسيحا، واتخذها مقرا لحكومته وقد هجر اسم العسكر بعد ما بنيت القطائع وإن كانت المبانى فى القطائع قد اتصلت بالعسكر - وفى سنة ٢٩٢ هـ زالت الدولة الطولونية ورجعت مصر لحكم العباسيين فخرب الوالى العباسى محمد بن سليمان القصر والميدان وعاد الولاة العباسيون إلى العسكر فاتخذوها مقرا لحكمهم - وفى عهد الدولة الاخشيدية اتصلت عمارة القطائع بالعسكر ووصلت هذه بالفسطاط ، وأطلق عليها جميعها اسم مصر وسكنها الأمراء إلى أن قدم جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فاختط مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ واتخذها الفاطميون مقاما خاصا لهم ولحواشيهم ، أما التجار والصناع والعمال ، فقد بقوا فى مصر (أى فى الفسطاط - والعسكر - والقطائع) وقد ظلت هذه المدن الثلاث الأخيرة زاهية فى أوائل العهد الفاطمى ، ثم أخذت تضمحل وتتقلص كلما اتسعت القاهرة الفاطمية إلى أن عفت وأتى عليها الدثور سنة ٥٦٤ هـ ويرجع ما لحقها من الدمار إلى أمرين : - الأول - القحط الذى اجتاح البلاد فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر «٤٢٧ - ٤٨٧ هـ» الذى استمر سبع سنوات من ٤٥٧ - ٤٦٥ هـ قاست فيه الفسطاط أكثر مما قاست المدن الأخرى والامر الثانى - هو الحريق الهائل الذى أشرنا اليه آنفا ، والذى أشعله شاور وزير الخليفة العاضد ، حتى لا تقع فى يد أمورى القائد الصليبى سنة ١١٦٨ م « راجع أيضا رسالة الفسطاط - للهوارى »

ويلاحظ فى تطور العاصمة أن المدن والزيادات التى كانت تضم

اليها كانت تمتد الى الشمال الشرقى والشمال وهـذا طبيعى فى جو كجو مصر يساعده أيضا ان الامتداد الى ناحية الشرق يمنعه وجود الجبل والبعد عن النيل .

وكان آخر امتداد للمدينة فى ناحية الشمال هو تأسيس هى العباسية فى أواخر القرن الماضى ، وتأسيس مصر الجديدة فى أوائل هذا القرن ، ويقال ان الحـكومة تنتوى اذا واتتها الظروف تأسيس مدينة من الشمال من مصر الجديدة .

وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر هنا ما أورده الأستاذ لين بول عن تأسيس الفسطاط قال .

لم تعد الاسـكندرية عاصمة مصر كما كانت فان هذه المدينة التجارية الكبرى كانت عرضة لأن يفصلها فيضان النيل ويقطع طريقها البرى إلى المدينـــة التى كانت عاصمة الخلافة ـ ولم يكن الخليفة عمر يعتقد أن الاستعمار سيظل أبديا وكان يكره أن يحرم من خـــدمات عمرو وجيشه العظيم لذلك أمر الجند أن لا يشتروا أرضا أو يتوطنوا فى مصر حتى يكونوا دائما على أهبة الاستعداد للقيام بأى حملة فى مكان آخر ومن جهة أخرى كانت الاسكندرية رمز النفوذ الرومانى وطغيان الكنيسة الارثوذكسية ومن أجل ذلك كانت بغيضة إلى الأقباط وقد أمر الخليفة عمرا أن يختار مكانا متوسطا فاختار السهل الذى كان يقع على مقربة من بابليون والذى كان لا يبعـد كثيرا عن منف العاصمة المصرية القديمة وكان عمرو قد ضرب خيامه فى هذا المكان أثناء حصار

مصر فهنا بنى عمرو مسجده الذى لا يزال قائما فى موضعه على الرغم مما اعتوره من تغيير وإعادة بناء

وهنا بدأ عمرو فى وضع أساس المدينة التى سماها الفسطاط ـ فى البقعة التى ـ كما تقول الرواية .. ترك فيها فسطاطه عند ما تحرك إلى الشمال لفتح الاسكندرية لأنه لم يرد أن يسمح لفراشيه أن يزعجوا اليمام الذى كان قد بنى عشه هناك ـ وقد ظلت الفسطاط عاصمة مصر أكثر من ثلاثة قرون إلى أن أسست القاهرة على مقربة منها فى سنة ٩٦٩م وحتى بعد ذلك الوقت ظلت الفسطاط العاصمة التجارية تميزا لها عن العاصمه الرسمية حتى حرقت أثناء الحروب الصليبية عند غزو الملك أملريك فى سنة ١١٤٨ م ـ قال المقريزى فى الجزء الثانى من خططه وهو أشهر مرجع لنا فى الطبوغرافيا المصرية يعتمد عليه ما نصه ؟ إعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة (حاكم) الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية . . . . وكان هذا الحصن مطلا على النيل وتصل السفن فى النيل إلى بابه الغربي . . . . وكان بجوار هذا الحصن من بحريه وهو الجهة الشمالية أشجار وكروم صار موضعها المسجد العتيق « جامع عمرو » وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى ؟ وقد ازدهرت العاصمة الجديدة بسرعة واتسع نطاقها

فسرعان ما أصبحت واحدة من أمهات الامبراطورية الاسلامية ـ اه ما أورده لين بول

٢ ـ ﴿ جامع عمر ﴾

هو أول مسجد أسس بمصر ، ويقال له أيضا الجامع العتيق ، وجامع الفتح وتاج الجوامع ومسجد أهل الراية وكان سبب انشائه ما كتبه الخليفة عمر إلى عماله أن يتخذ كل منهم مسجدا للجماعة وأن لا يبنوا فى موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر ، وأن يجعلوا للقبائل مساجد فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة ـ فبنى عمرو ابن العاص هذا المسجد فى سنة ٢١ هـ على أنا لا نعرف تماما بسبب اختلاف الروايات هل بدأ فى بناء المسجد قبل تخطيط الفسطاط ، أم بنى بعد تخطيطها على أن الرواية الثانية يرجحها ما أورده ابن تغربردى وغيره من أن موضع المسجد كان خانا يملكه قيسبه بن كلثوم التجيبى وأنه تصدق به على المسلمين لما تشاوروا أين يكون موضع المسجد واتفقوا على أن يكون محل خان قيسبه أو داره على حد تعبير الروايات .

وقد ذكر بتلر أن أنشاءه كان فى الشتاء من سنتى سنة ٦٤١ سنة ٦٤٢ م وقد أختار عمرو لبنائه الموضع الذى كان فيه لواؤه وصار يعرف بأسم مسجد أهل الراية (أشرنا من قبل إلى أن أهل الراية كانوا بعض البطون الذين لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد به بدعوة

من الديوان فجعل لهم عمرو راية ولم ينسبها إلى أحـــد، وكان ذلك الموضع بين بساتين وكروم على شاطىء النهر والذى أسس المسجد وحرر قبلته جماعة من الصحابة ـ اختلف الرواة فى عددهم فقال بعضهم كانوا ثمانين ، قال آخرون كانوا ثلاثين ، وذكر أنهم كانوا ثمانية ، وقيل أربعة ولا يمنع أن يكون حضر ثمانون من الصحابة وضع أساس المسجد من بينهم الزبير والمقداد بن الأسود ، وأبو الدرداء ، وعقبة بن عامر ، وعبادة بن الصامت وحرر قبلته أربعة من الصحابة كان أحدهم أبو ذر الغفارى ولكنهم لم يضبطوها تماما فكان عمرو اذا صلى فى الجامع يصلى ناحية الشرق إلا الشىء اليسير .

وورد فى بعض النصوص أن جماعة من القبط هندسوا معهم الجامعة ولكننا نستبعد ذلك لأن بناء المسجد وكل المدينة كان من السذاجة بحيث لا يحتاج الى الاستعانة بمهندسين أو معماريين ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وأول من بناه قرة بن شريك ، وكان المسجد من الضيق بحيث لم يتسع لكل المصلين فكانوا يصلون فى الطريق المحيط به ، وذكر السيوطى أن عمرا اتخذ منبرا فكتب اليه الخليفة الكتاب الآتى :

أما بعد فانه بلغنى انك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين أما حسبك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبيك فعزمت عليك إلا ما كسرته .

وكان البناء الذى أسسه عمرو طوله خمسون ذراعا فى عرض ثلاثين

والطريق يطيف به من كل جهة وجعل له بابان يقابلان دار عمرو وبابان فى بحريه وبابان فى غربيه ، وكان سقفه مطأطئا ولا صحن له فاذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية .

ونحن نورد هنا وصف المسجد كما ذكره لين بول فى كتابه : لم يبق من البناء الأصلى شيئا ، وقد كان هذا البناء حجرة مستطيلة بسيطة طوله ٢٨و٩ متر ، عرضه ١٧و٣ متر وكان سقفه المنخفض بلا شك يعتمد على بعض الأعمدة القديمة . . ومن المحتمل أن جدرانه كانت من الآجر ولكن يرجح جدا أنها كانت من اللبن ولم تكن مبيضة ، أما الأرض فقد فرشت بالحصباء ، ومن المحتمل أن النور كان يصل اليه كما هو الحال فى الأبنية ذات الأعمدة الكثيرة فى الوقت الحاضر من فتحات مربعة فى السقف ؛ ولم يكن به محراب ، ولا أى زخرف فى الداخل فى هذا البناء المتواضع كان فاتح مصر ونائب الخليفة يؤم الناس فى الصلوات العامة ويخطب وهو واقف على الأرض لأن الخليفة حظر اقامة المنابر ؛ وكانت دار عمرو تقع قبالة المدخل الرئيسى للمسجد اهـ لين بول .

ذلك كان الوصف الذى أورده لين بول لأول مسجد أسس فى مصر والذى وضعه بأنه كان لا يعدو أن يكون حجرة واتماما للفائدة نورد هنا فى شىء من الاختصار الزيادات التى دخلت على المسجد فى العصور المختلفة فى سنة ٥٣ هـ .

زاد فيه مسلمه بن مخلد عامل معاوية من الناحية الشمالية مايقرب من مساحة البناء الأصلى ، وجعل له رحبة أمام هذه الزيادة « الرحبة قطعة ملحقة بالمسجد ليست محـــلا للصلاة وغير مسقوفه» وبيضه وزخرف جدرانه وسقوفه وأقام فيه أربع صوامع صغيرة يصعد إليها من خارج المســـجد فى أركانه الأربعة وفرشه بالحصر بدل الحصباء وزاد فيه من شرقيه حتى ضاق الطريق بينة وبين دار عمرو .

وفى عهد عبد العزيز بن مروان هدم المسجد كله وزاد فيـــه من ناحية الغرب وادخل فيه الرحبة التى أقامها مسلمة .

وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك رفع سقف المسجد وكان مطأطئا

وفى عهد قرة بن شريك هدم المسجد سنة ٩٢ هـ بأمر من الوليد وزاد فيـه من الناحية القبلية ومن الناحية الشرقية بحيث ادخل جزء من دار عمرو ودار ابنه عبد الله فى بنائه ونصب له منبرا وجعل للجامع أحد عشر بابا ، أربعة من الجهة الشرقية ، وأربعة من الجهة الغربية ، وثلاثة من الناحية البحرية وقيل إنه حمل إليه من بعض كنائس مصر هذا ما تم فى عهد الأمويين من زيادة .

أما ما تم فى عهد العباسيين فأهمه زيادة صالح بن على فى سنة ١٣٣ هـ فيه من الناحية البحرية وزيادة موسى بن عيسى فى سنة ١٧٥ هـ فيـه من الناحية البحرية أيضا .

وزيادة عبد الله بن طاهر فى سنة ٢١٢ هـ فيه من الناحية الغربية وهى زيادة كبيرة جعلت مساحة المسجد الضعف تقريبا .

وفى سنة ٢٣٧ هـ زاد فيه الحارث بن مسكين رحبة وأصلح بنيان السقف .

وفى سنة ٢٥٨ هـ زاد فيه أبو أيوب الرحبة المعروفة باسمه .

ثم توالت الزيادات بعد ذلك فزاد فيه خمارويه بن أحمد بن طولون ، وأبي حفص العباسى ، وأبى بكر محمد ولم تطرأ على المسجد زيادات تذكر بعد ذلك إنما كان مايحدث هو إصلاح وتحسين وتنميق نذكر أسماء أهم الأشخاص الذين تناولوه بحسب ترتيب التاريخ وهم :

الحاكم بأمر الله الفاطمى ، المستنصر بالله ، صلاح الدين الأيوبى الظاهر بيبرس البندقدارى ، السلطان قلاون ، السلطان قايتباى ، مراد بيك ، وفى وقتنا هذا قامت وزارة الأوقاف أولا ، ولجنة حفظ الآثار العربية وبهذه المناسبة نذكر إن المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول رحمه الله قد أمر باجراء مسابقة عالمية لأحسن تصميم يعيد المسجد لعصر زهائه الأول وذلك احتفاظا بشهرته التاريخية العظيمة

ويجب أن نذكر هنا إيضاحا للحقيقة والتاريخ أن الأعمدة الكثيرة التى تحيط بصحن الجامع فى الوقت الحاضر ليست من طراز واحد ولا من حجم واحد اذ أن حكام مصر من أيام الأمويين الى أيام المماليك لجأوا الى نقل الأعمده من المعابد المصرية القديمة والكنائس الرومانية واليونانية ، فوضعوها فى هذا المسجد ، وقد كان هذا أمرا طبيعيا اذ لم يكن فى عهد هؤلاء الولاة صناع لقطع العمد الرخام أو الجرانيت ونقلها من المحاجر الى المسجد ، ولم يذكر التاريخ أن واحدا تعفف عن نقل

الأعمدة القديمة واستعمالها فى مبانيه الا أحمد بن طولون وبمناسبة أعمدة المسجد نذكر بعض الخرافات التى كانت شائعة حتى العصر الأخير بين العامة عن بعض أعمدته فهناك عمود كان يضرب به العامة بالعصى والنعال بعد الفراغ من صلاة آخر جمعة من شهر رمضان ، وذلك لأنه كما تقول الخرافة أمره عمرو بالتحرك الى مكان بالمسجد فعصى فضربه بالسوط وهناك عمودان على يسار الداخل الآن من الباب الغربى القبلى يسميان عمودا كشف الخطايا ، كان العامة يزعمون أنه لايستطيع المرور بينهما الا الطاهر الخالص من الذنوب وأن الرجل البدين الطاهر قد يسلك بينهما ، بينما يتخلف النحيف المذنب وقد أحسنت وزارة الأوقاف إذ أقامت حول هذين العمودين وحول العمود المسجون سياجا متينا من الحديد لمنع استعمالها والقضاء على هذه الخرافة ثم أزيلت هى الأسيجة أخيرا .

وقبل أن نختتم هذا الفصل عن مسجد عمرو نرى من المفيد أن نثبت هنا نصا لخطبة القاها عمرو فى مسجده هذا ولعل هذه الخطبة كانت بعد تأسيس المسجد بمدة قليلة قال ؟ بعد حمد الله حمدا موجزا والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم

يامعشر الناس أياكم وخلالا أربعة فانها تدعوا إلى النصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة وإلى المذلة بعد العزة ، وأياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال فى غير درك ولانوال ، ثم إنه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه والتدبير

لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيحور من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه غافلا .

يامعشر الناس إنه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى ، وأقلعت السماء وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر ، فحى لكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً ، وإياكم والمسومات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم ، حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول

« إن الله سينفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة »

فكفوا أيديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، ولا أعلمن ماأتى رجل قد اسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجل ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوق قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية

وحدثنى عمر أمير أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « اذا فتح الله

عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر : ولم يارسول الله ؟ قال « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » .

فاحمدوا الله معشر الناس على ماأولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ماطاب لكم ؛ فاذا يبس العود وسخن العمود وكر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحى الى فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيل على عياله الا ومعه تحفة لعياله على ماأطاق من سعته أو عسرته ، أقول قولى هذا واستحفظ الله عليكم .

ولسنا فى حاجة الى التعليق على هذه الخطبة فهى تفصح عن نفسها وتصور لنا الخليفة رجلا زاهدا وعمر الشعبه ناصحا أمينا حريصا على سياسة عمر الذى كان يريد أن يجعل من العرب جيشا قائما على أهبة الاشتراك فى أى معركة الأمر الذى كان يرغب فيه عمرو لأنه كان يعتقد أن مصر لا تستقر فى يد العرب إلى إذا ضمت اليها النوبة فى الجنوب ، وبرقه فى الغرب .

وننتقل الآن إلى عمل آخر عظيم كان من نتائج العرب فى مصر وهو توصيل النيل بالبحر الأحمر أو حفر خليج أمير المؤمنين

٣ – خليج أمير المؤمنين

لم تفتأ المحاولات لتوصيل البحرين الأبيض والأحمر قائمة منذ أقدم عصور التاريخ سواء فى ذلك أكان التوصيل بين البحرين مباشرة

أم عن طريق النيل نحن نلخص لك بمناسبة الكلام عن خليج أمير المؤمنين أهم هذه المحاولات

كانت أقدم محاولة فى التاريخ تؤيدها النصوص التاريخية إلى حد ما توصيل النيل بالبحر الأحمر عن طريق وادى الطميلات فى عهد السيرتس الثالث الذى يسميه اليونان سيزوستريس من ملوك الأسرة الثانية عشرة ؛ وكان وادى الطميلات واديا خصبا يمتد من شرق النيل إلى البحيرات المره الذى كان خليج السويس يصل اليهـــا فى العصور القديمة ، وقد ذكر ارسطو واسترابون وبلينى أن سيزوستريس هـذا هو أول من وصل النيل بالبحر الأحمر بقناة ـ وهنـــاك نص على جدران معبد الكرنك يشير إلى أن هذه القنـــاة كانت موجودة فى أيام سيتى الأول سنة ١٣٨٠ ق.م ويمكن تعقب مجرى هـذه القناة فى وادى الطميلات الى وقتنا هذا ؛ وقد تتبعها المهندسون الذين حفروا الترعة العذبة فى القرن الماضى ـ

وقد بدأ نخاو (٦٠٩ ق . م) بحفر قنالا مبتـدئا من تل بسطة ليصل ما بين النيل والبحر الأحمر على أنقاض قناة كانت موجودة فى أيام رمسيس الثاني وتتبع مجرى وادى الطميلات أيضا ، لكن مشروعه منى بالفشل ولم يستطع إتمامه ، وقد روى هيرودت أن عددا لا يقل عن ١٢٠ ألف من المصريين هلكوا أثناء هـذه المحاولة فاوقف الملك العمل لأن عرافة أخبرته أن البرابرة أو البربرين (الفرس) هم الذين سيستفيدون منه .

على أن هذا العمل الذى لم يتمكن من إتمامه نخاو قد تم بعد قرن من الزمان على يد دارا الفارسى (٥٢٠ ق.م) ويتفق مجرى القناة التى حفرها دارا مع مجرى الترعة العذبة الآن إلى حد كبير وقد خلد دارا ذكر إتمامه هذا العمل العظيم بأن أقام على جانبيه التماثيل التى عثر أخيرا على بعضها فى جنوب تل المسخوطة وشمال السويس عند السرابيوم وغير ذلك من الاماكن ، وكانت المراكب تأتى من البحر الأبيض فتصعد فى البحر البولوزى حتى تصل إلى تل بسطة ومن ثم تتجه إلى البحر الأحمر وقد رأى هيرودوت عند زيارته لمصر هذه القناة مملوءة بالماء ووصفها بانها كانت من السعة بحيث تتسع لمرور سفينتين وكان اتساعها يتراوح بين مائة ومائتى قدم ثم طمتها الروابع الرملية حتى أعيد فتحا فى أيام البطالسه

وفى عهد بطليموس فلادلفيوس (٢٨٥ ق م) تم توصيل القناة وأقيمت مدينة أرسنو على رأس خليج السويس من ناحية العرب وفى أيام كليوباترا (٣١ ق م) كان قد ضاق الفرع البولوكوزى فجعل القناة غير صالحة للملاحة ، وقد ذكر استرابون الذى زار مصر قبل الميلاد أنه رأى القناة غاصة بالسفن كما أن لوتارخ وهو يصف هرب كليوباترا بعد معركة اكتيوم يقول إنها حاولت أن تنقذ البقية الباقية من أسطولها بامرارها فى القناة إلى البحر الأحمر ولكن انخفاض النيل عاقها عن إتمام ذلك

وفى أيام تراجان (٩٨ — ١١٥ م) أعيد حفر القناة لأن الفرع

البولوزى كان قد بطلت صلاحيته للملاحة نهائيا ، فحفر تراجان قناة بين بابليون وتل بسطة التى كان تتفرع عندها القناة الذاهبة إلى السويس . ولكن المؤرخ هول يتشكك فى حفر تراجان لهذا الفرع من بابليون إلى تل بسطة ويقول إن الرومان كانت لا تعدو أعمالهم التطهير والاصلاح فحسب وهو ينسب حفر هذا الجزء الى عمرو بن العاص فاتح مصر فى القرن السابع الميلادى ومما لا شك فيه أن هذه القناة كانت مستعملة فى الصدر الأول من الحكم الاسلامى فى مصر وأنها لم تطم الا حوالى سنة ٧٧٠ م بامر الخليفة أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين الذى أراد أن يمنع وصول المؤن الى بلاد العرب عن طريق هذه القناة وكانت قناة عمرو (التى يقال ان الخليج الذى كان يجوس خلال القاهرة وردم فى سنة ١٨٩٧م جزءاً منها) تنتهى عند البحر الاحمر الى الجنوب من خليج هيروبوليت قرب مدينة السويس الحالية ولا نستطيع أن نجزم أن هذ الخليج قد أعيد فتحه ولو أن بعض الروايات تقول انه كان صالحا للملاحة فى سنة ١٠٠٠م أيام الحاكم بامر الله الفاطمى فاذا كان الامر كذلك فلا بد أن يكون قد طم مرة أخرى وكانت بعض أجزاء القناة تملأ بالماء أيام فيضان النيل حتى أمر محمد على بردمها فى سنة ١٨١١ م ولكن الردم لم يكن كاملا إذ ظلت المياه حتى سنة ١٨٤٠ م تتدفق فى القناة القديمة من بوبسطا الى القصاصين وإن هذا الجزء من القناة الذى ظل مستعملا أكثر من خمس وعشرين قرنا قد استفاد منه المهندسون

الفرنسيون سنة ١٨٦١ ـ ١٨٦٣ م فى حفر القناة العذبة التى تجرى الآن من القاهرة الى السويس ـ وهذه القناة تجرى فى نفس الموضع الذى كانت تجرى فيه قناة عمرو أو تراجان ـ وفكرة وصل البحرين عن طريق برزخ السويس ترجع الى القرن الثامن الميلادى أيام هارون الرشيد الذى قيل أنه فكر فى الأمر ولكنه أهمل المشروع لما افهم أنه قد يكون خطرا على سواحل بلاد العرب اذ يستطيع الأسطول البيزنطى أن يصل اليها وتدل التواريخ على أن أهل البندقية الذى أصيبت تجارتهم بالكساد بعد كشف الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح فى القرن الخامس عشر قد فكروا فى حفر قناة فى برزخ السويس وعرضوا على اقتراحهم على المصريين ولكن الأتراك تدخلوا فى الأمر كما أن ليبنتيس أعد مشروعا مثل هذا للوويس الرابع عشر سنة ١٦٧١ وقد وافق على هذا المشروع شيخ البلد على بك وعند ما جاء بونا برت الى مصر فى سنة ١٨٩٧ م شهد بقايا القنال القديم ففكر فى شق القناة تصل البحرين يستطيع بواسطتها أن ينقل جنوده الى الهند ليطرد الانجليز منها وقد عهد الى مهندسه ليبير بدراسة المشروع ومسح الأرض وتقديم تقرير له وأيد تقريره الفكرة التى كانت شائعة اذذاك وهى أن هناك خلاف بين مستوى سطح الماء فى البحرين واليك نص ما كتبه ، ليبير مما لا شك فيه أنه بعد دراسة المساحات التى قمنا بها أن الدلتا تكون معرضة للغرق بمياه البحر الأحمر وأن المخاوف التى قامت فى أذهان المصريين القدماء

فى حالة حفر القناة بين البحرين كان لهـا مايبررها وبخاصة فى الأزمنة السابقة حين كان أرتفاع الدلتا وقاع النيل اخفض بلا شك مما هو الآن وعند ماقدم ليبير تقريره إلى بونابرت تنبأ بونابرت بما سيتم فى كلمته الآتية :-

ان المشروع عظيم وسوف لاأكون أنا الذى أتمه ولكن ربما جاء يوم تستطيع الحكومة فيه ان تفتخر بانجاز هذا المشروع ؟ وكثيرا ما كان يشير الى هذا الموضوع وهو فى منفاه فى سنت هيلانه .

ومما لاشك فيه ان دراسات ليبير المساحية كانت سطحية او لعلها لم تكن كاملة بسبب قلة الآلات الدقيقة لأنه ذكر ان ارتفاع البحر الأحمر يزيد بعشرة امتار او ثلاثة وثلاثين قدم عن مستوى سطح البحر الأبيض وقد اقترح فى حالة القيام بعمل قناة ان تقام لها سدود وعضد تلبوت فكرة إنشاء قناة من السويس إلى القاهرة ومدها فى مجرى مائي يمر على قناطر مرتفعة فوق النيل إلى الاسكندرية وقد أثبت ثلاثة من كبار المهندسين فيما بين سنتى ١٨٤١ ؛ ١٨٤٧ م وهم استيفنصن المهندس الانجليزى المشهور للسكك الحديدية ، نيجريللى المهندس النمساوى ، وبوردالو المهندس الفرنسى بطلان الرأى القائل بوجود خلاف بين مستوى البحرين ، ولعل ماوصل اليه هؤلاء الثلاثة وغيرهم من المهندسين الآخرين الذى حدا بفرديناند دلسبس المهندس الفرنسى إلى التفكير فى إنفاذ مشروعه الهائل لحفر قناة السويس الذى تم فى سنة ١٨٦٩ م

ونشعر أنا قد استطردنا كثيرا وأن الكلام قد طوح بنا بعيدا عن موضوع البحث الذى نعالجه فلنعد الآن إلى قناة عمرو بن العاص ونذكر هنا أن المراجع الاسلامية تذكر تاريخ هذه القناة والأدوار التى مرت بها منذ أقدم العصور ولكنها شأنها فى كل التاريخ القديم تخلط التاريخ بالميثيلوجيا وتذكر أسماء بعض الفراعنة لايعترف العلم الحديث بها ولا يعرفها ومن ذلك ما رواه المقريزى الذى عقد فصلا طويلا فى الجزء الثالث من خططه عنوانه ذكر خليج مصر إذ قال بعد ذكر قصة إبراهيم وسارة وهاجر الجارية المصرية التى أهداها طيطوس لسارة ؟

أن طيطوس عاش إلى أن وجهت هاجر من مكة تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيثه فأمر بحفر نهر فى شرقى مصر بسفح الجبل حتى ينتهى إلى مرقى السفن فى البحر الملح فكان يحمل اليها الحنطة وأصناف الغلاة فتصل إلى جدة وتحمل من هناك على المطايا فأحيا بلد الحجاز مدة اه ولا شك أن هذا الكلام ظاهر خرافة .

أما ما يمكن أن يعتمد عليه فهو مارواه المقريزى عن ابن عبد الحكم حيث قال ؟ إن الناس بالمدينة أصابتهم جهد شديد فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سنة الرمادة فكتب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص وهو بمصر من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العاصى بن العاصى سلام أما بعد فلعمرى يا عمرو مانبالى اذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى فيا غوثاه ثم

يا غوثاه ؟ فكتب اليه عمرو من عبد الله عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين أما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندى ؟ قال المقريزى فبعث اليه بعير كان أولها بالمدينه وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع الى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعير بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ويأتدموا باحمه ويحتذوا بجلده وينتفع بالوعاء الذى كان فيه الطعام فيما أرادوا من لخاف وغيره فوسع الله بذلك على الناس

ولا شك أن الرواية التى نقلها المقريزى وأخرجها السيوطى أيضا فيها كثير من المبالغة ولكنها تدل على عظم ما بعث به عمرو وقد اطمأن الخليفة الى أن مصر بغناها تستطيع أن تمون الحجاز اذا نزلت به كارثة كما حدث فى عام الرماده فبعث الى عمرو يطلب إليه أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر فلما قدموا اختلى الخليفة بعمرو واقترح عليه أن يحفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لحمل الطعام الى المدينة ومكة ووافق عمرو على رأى الخليفه ولكنه عند ماشاور أهل مصر ثقل عليهم ذلك وخافوا أن يدخل منه ضرر على مصر فاقترحوا على عمرو أن يعظم ذلك على أمير المؤمنين فلما رجع عمرو الى الخليفة أدرك بفطنته سبب عودته فشدد عليه فى ضرورة حفر الخليج والزمه بالفراغ منه فى سنة وعاد عمرو الى مصر ورأى أن حفر الخليج يغضب القبط إذ يخرج طعام أرضهم وخصبها الى أرض الحجاز فكتب الى الخليفة يتمحل أسبابا لعدم قدرته على

حفر الخليج فكتب اليه الخليفة يهدده ان لم يفعل بالعزل هذه خلاصة ما أورده المؤرخون المسلمون عن سبب حفر الخليج وفى رأينا أنها فى مجموعها صحيحة وإن كان فريق آخر من المؤرخين يرى أن هذه القصة اخترعت فى الأزمنة المتأخرة وان عمرا بما جبل عليه من نشاط أقدم على حفر الخليج مستعينا ببعض الأجزاء القديمة التى كانت باقية من خليج تراجان وببعض الأقباط الذين دلوه على مواضع الأجزاء المطمورة منه وقد كافأ عمرو هؤلاء القبط برفع الجزية عنهم ومسألة أخرى يختلف فيها المؤرخون وهى التاريخ الذى حفر فيه الخليج والمدة التى استغرقتها عملية الحفر فالكندى يقول ان ذلك كان فى سنة ٢٣ هـ وان الحفر استغرق ستة أشهر ، وبتلر يقول ان سنة ٢٣ هـ تبدأ فى سنة ٦٤٣م وهو يرى أن الخليج حفر فى شتاء عام سنة ٦٤١ـ سنة ٦٤٢م لأن من المعلوم أنه قبل موت عمر فى ذى الحجه سنة ٢٣هـ كانت السفن المصرية تأتي إلى بلاد العرب تحمل البضائع اليها ولا يعقل أن كل هذا الخليج يمكن أن يحفر ويجهز لسير السفن فى أقل من سنة ـ ويعزز ما أورده البلاذرى من أن عمر بن الخطاب كتب فى سنة ٢١ هـ إلى عمرو بن العاص يعلمه ما فيه أهل المدينة من الجهد ويأمره أن يحمل ما يفيض من الطعام فى الخراج الى المدينة فى البحر ما يعزز التاريخ الذى ذهب اليه بتلر وهو شتاء ٦٤١ — ٦٤٢ م وما ورد فى بعض الكتب من أن الخليفة ذهب الى الجار وهى فرضة المدينة ليرى مجىء السفن

الآتية من مصر وهذا يدل على أن الخليج كان تاما ومستعملا قبل وفاة عمر فى نوفمبر سنة ٦٤٤م

وتكاد تجمع كل الروايات على أن الخليج الذى كان يبلغ طوله تسعون ميلا تم حفره فى مدة قصيرة تبلغ السنة ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن بعض أجزاء القناة كان لا يزال صالحا للملاحة وقد ذكر لين بول أن عمرا كان يلجأ إلى نظام السخرة الذى يرجع إلى أقدم العصور وأنه كان يحتفظ بقدر عدده ١٢٠ ألف عامل يشتغلون باستمرار فى العناية بالجسور والترع وتحصينها وصيانتها وأر الخليج القديم الذى ينسب إلى آمنيس تراجان والذى كان يصل بابليون بالبحر الأحمر كان قد طم فطهروه وحفروه وأعادوا فتحه فى أقل من سنة وأرسلت الغلال فى المراكب إلى المدينة بدلا من إرسالها فى القوافل كما حدث فى العام السابق ؟ وإذا كان صحيحا ما أورده لين بول أن عمرا كان يحتفظ بهذا العدد الضخم من العمال فلا شك أنه قد استخدمهم إن لم يكن استخدم عددا عظيما غيرهم من أهل البلاد فى حفر هذا الخليج ولم يكن هذا بدعا فقد كان نظام السخرة قائما منذ أقدم العصور إلى وقتنا هذا ولم يلغ إلا منذ عامين وكانت تبرره فى معظم الظروف المصلحة العامة إذ كان الوسيلة الوحيدة لانقاذ البلاد من أخطار الفيضان ويخيل الينا أن عمرا فى حفر خليج أمير المؤمنين قد ساق عددا عظيما من أهل البلاد للحفر يؤيد ذلك ما نقله بتلر عن حنا النيقيوسى الذى وصف المسلمين وصفا شديدا وتناولهم بالقول اللاذع فقال

وكان نيرهم على أهل مصر أشد وطأة من نير فرعون على بنى اسرائيل ولقد انتقم الله منه انتقاما عادلا بأن أغرقه فى البحر بعد أن أرسل صنوف بلائه على الناس والحيوان ونسأل الله إذا ما حل حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل؟ اهكلام حنا النيقيوسى وقد علق عليه بتلر بكلامه إن هذه الشدة جاءت عفوا فى وقت الفتح ولم تكن صفة ثابتة لحكومة عمرو فى مصر .

وقد ذكر بتلر ؟ أن عمرا كان ينوى حفر خليج بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط فيكون بذلك قد قطع البرزخ بالبحر كما هو اليوم ولكن عمر بن الخطاب أبى عليه ذلك وأنكره قائلا إنه يمكن من السير إلى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج وليس فى هذه القصة شبهة تمنع من تصديقها؟ولم يذكر بتلر المرجع الذى اعتمد عليه فى نقل هذه الرواية ونحن لم نقع عليها فى المراجع التى نحت أيدينا رغم إسهابها وتناولها كل صغيرة ولئن صحت هذه الرواية لدلت على بعد نظر كبير من جانب الخليفة وهو ما لا ننكره وإن كنا نستبعد صحة هذه الرواية .

وقبل أن نختتم هذا الفصل نريد أن نذكر هنا أن هذا الخليج ظل مفتوحا زهاء ثمانين عاما أهمل بعدها حتى ظم ؛وقد ذكر المقريزى أن عبد العزيز بن مروان بنى عليه قنطرة فى ولايته على مصر ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ثم أضاعته الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب

التمساح من ناحية بطحاء القلزم وقد أمر أبو جعفر المنصور بسد الخليج حينما خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ليقطع عنهم الطعام وما زال مهملا بعد ذلك حتى أعيد فتحه أيام الخليفة المهدى سنة ٧٨٠ م

قال المقريزى مابرح هذا الخليج متنزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف الآن بالخليج الناصرى - وقال المسبحى وفى المحرم سنة ٤٠١ هـ منع الحاكم بأمر الله من الركوب فى القوارب إلى القاهرة فى الخليج وشدد فى المنع وسدت أبواب القاهرة التى يتطرق منها إلى الخليج وأبواب الطاقات من الدور التى تشرف على الخليج وكذلك أبواب الدور والخوخ التى على الخليج - وقال القاضى الفاضل فى متجددات حوادث سنة ٦٩٤ هـ ونهى عن ركوب المتفرجين فى المراكب وعن إظهار المنطق المنكر وعن ركوب النساء مع الرجال . . . . . وظهر فى هذه المدة من المنكرات مالم يعهد فى مصر فى وقت من الأوقات . . فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة ومعهم النساء الفواجر وبأيديهن المزاهر يضربن بها وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة ومحارمهن من الرجال معهن فى المراكب لا يمنعون عنهن الأيدى ولا الأبصار ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئا من أسباب الأنكار . . . الخ

وما أردنا ايراده عن المقريزى لنعطى صورة عما شهد ، هذا الخليج فى أيامه المتأخرة

ونختم هذا الفصل بأن نذكر هنا أن هذا الخليج ظل قائمـــا إلى أواخر القرن الماضى يجوس خلال القاهـرة إلى مسافة ما فى الشمال الشرقى ويضفى على المدينة شيئا من الجمال على الرغم من الرائحة الكريهة التى كانت تنبعث منه بسبب مياهه الراكده حتى طم فى سنة ١٨٩٩ م لأسباب صحية وحل محله الآن فى القاهرة شارع طويل يعرف بشارع الخليج المصرى يجرى فيه طريق الكهرباء

وقبل أن ننتقل إلى الباب التالى نذكر اتماما للفائدة أحـــدث المحاولات لوصل البحرين الأبيض والأحمـر . فاما المحاولات الأولى فهى وصل نهر العاصى فى سوريا بنهر الفرات عند المنطقة التى يقترب فيها نهر الفرات جدا من بحر المشرق وبذلك يمكن أن تقرب المسافة من أوروبا إلى الهند عن طريق نهر الفرات والخليج الفارسى وتفكر فى هذا المشروع بعض الجهات الفرنسيـة ولا تزال إلى الآن تدرس بعض المصاعب الجغرافية والسياسية لتذليلها قبل الاقدام على تأسيسه

وأهم المصاعب الجغرافية هى الفيضانات الفجائيـة لنهر الفرات ، وأما المصاعب السياسية فهى آتية من حكومـــة العراق التى لاتزال مترددة فى إقرار هذا المشروع

وتفكر انجلترا فى حفر قناة تعبر صحراء سينا تمتد من العريش إلى العقبة ولكن تعترض هذا المشروع أيضا صعوبات جغرافية لأن

المنطقة التى ستمر خلالها القناة بعيدة عن موارد الماء العذب اللازم للعمال وفوق هذا فان نفقات حفرها كبيرة جدا لأنها ستكون أطول بكثير من قناة السويس التى تقلل من نفقات الحفر فيها وجود عدة بحيرات فى برزخ السويس

وظهر فى الأيام الأخيرة أن وزارة المستعمرات البريطانية تفكر فى إنشاء قناة جديدة تصل ميناء العقبة بالبحر الميت والبحر الأبيض مخترقة صحراء سينا وتنتهى عند حيفا على البحر الأبيض وهذا تحوير للمشروع السابق ويقول الخبراء ان هذه القناة ستكون لها أهمية حربية لا يستهان بها، ذلك إلى أنها ستسهل مهمة استغلال عدد كبير من المناجم الموجودة فى تلك المناطق راجع (المصور عدد ٧٥٧ بتاريخ ١٤ ابريل سنة ١٩٣٩)

وهناك مشروع جديد نبت فى مصر فى الشهور الأخيرة ذلك أن الاستاذ عزيز بك خانكى يقترح حفر قناة أهلية يطلق عليها « اسم فاروق الأول » وتبدأ القناة من رشيد مارة بقوة المحمودية ودسوق والرحمانية وشبراخيت وتكلا العنب وكفر الزيات وبنها والقناطر الخيرية والقاهرة ثم توصل بترعة الاسماعيلية وتنتهى بذلك الى السويس ولما كانت المسافة بين الأسكندرية وبور سعيد ٢٧٣ كيلو مترا والمسافة بين بور سعيد والسويس ١٦٤ فيكون مجموع المسافة بين الأسكندرية وبور سعيد ٤٣٧ كيلو مترا أما المسافة بين

هاتين المدينتين (رشيد والسويس) نعد حفر القناة فستكون حوالى ٣٢٧ كيلو مترا

ويرى عزيز بك خانكى صاحب المشروع أن مصر ستربح من ورائه خمسة ملايين من الجنيهات فى العام يضاف الى ذلك أن الوجه البحرى سيحصل على فوائد تجارية جمة من هذه القناة وفوق هذا فان تكاليف إنشاء هذه القناة ستكون أقل من تكاليف حفر قناة السويس ذلك لأن الأمر لا يحتاج فى الواقع إلى توسيع مجرى النيل ومجارى القنوات الموجودة الآن دون حاجة الى حفر مجرى جديد علاوة على أن القناة ستمر فى أرض خصبة على عكس قناة السويس التى حفرت فى الصحراء حيث لم يكن الماء العذب يصل إلى العمال بسهولة ؛ هذا إلى أن نفقات صيانتها ستكون أقل من نفقات صيانة قناة السويس راجع الصحف (راجع الصحف المصرية التى صدرت فى شهر ابريل وعدد المصور السابق)

ولا يزال هذا المشروع قيد البحث الآن .

الباب السادس

ولايه عمرو بن العاص على مصر

تاريخ عمرو قبل الفتح

لم يبق أمامنا بعد إذ أتينا على وصف الفتح العربى لمصر وشرحنا الكلام عن الحوادث الهامة والمسائل الأخرى المتعلقة بذلك الفتح إلا أن نتناول مصر الآن كولاية إسلامية هامة من ولايات الخلافة كان أول ولاتها أو عمالها عمرو بن العاص صاحب اليد الطولى فى إتمام ذلك الفتح بل وفى التفكير فيه كما بينا ونرى قبل أن نعالج تاريخ مصر فى هذا التطور الخطير من مراحل تاريخها الحافل أن نأتي بفذلكة قصيرة عن حياة ذلك البطل العظيم ، من أبطال المسلمين ولا نريد الاطالة خشية أن يجرنا الكلام إلى الخروج عن موضوع بحثنا والاكتفاء بما هو مدون فى كتب التاريخ العام .

ينسب عمرو بن العاص إلى العاص بن وائل السهمى الذى كان من ذوى اليسار فى الجاهلية وكبار التجار الذين يحملون المتاجر من بلاد الحبشة واليمن إلى الشام وقد كان لأسرته شأن عظيم فى الجاهلية إذ كانت فيهم الحكومة وهى إحدى المناصب العشرة الوراثية فى نظام الحكم الجمهورى بمكة .

أما أمه فهى سلمى وقيل فى بعض الروايات ليلى وقيل غير ذلك وقد اختارت العاص أباله من بين أربعة تنازعوا عليه هم العاص : وأبو لهب ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، وكان الناس يعيرون عمرا بسبب ذلك ونحن نعتقد أن هذا لايضيره لأنه غير مسئول عنه ولا يطعن فى كفايته ومقدرته ، وقد اختلف المؤرخون فى السنة التى ولد فيها وعقد بتلر ملحقا فى كتابه عالج فيه موضوع سن عمرو بن العاص ورجح قول النواوى الذى قال إن سن عمرو عند وفاته كانت سبعين سنة ومعنى هذا أنه ولد فى سنة ٥٩٥م وأن عمره كان حوالى أربع وأربعين سنة وقت فتح مصر وهو يستبعد أن يكون عمرو فتح مصر وهو فى السادسة والستين من عمره لأن هذا السن تعوقه عن هذا القيام لهذا الأمر ، ولكنا نميل إلى الرأى القائل بأن عمرا توفى فى سن التسعين وعلى ذلك تكون ولادته قبل الهجرة بسبع وأربعين سنة تقريبا ونرى أن كبر السن ماكان ليعوق الرجل النشيط عن القيام بمثل ذلك العمل وأمثلة التاريخ كثيرة لتايد ما نقول .

ويرجح لدينا أن عمرا نشأ فى كنف أبيه وربى تربية أبناء الأشراف فى الجاهلية وقد اشتهر منذ صغره بالفصاحة والابانة فى الأمر ولعله نشأ نشأة أبيه التجارية وكانت كثرة سفره للتجارة من الأسباب التى فتقت ذهنه ووسعت أفقه ، وقد أشرنا من قبل إلى قصة سفره إلى مصر فى الجاهلية وعلقنا على هذه القصة فارجع اليها .

وظهر الاسلام فكان من المناوئين للرسول عليه السلام وبعثته

قريش ضمن من بعثت سفيرا إلى النجاشى ليرد المسلمين الذين هاجروا اليها فرارا من اضطهاد قريش لهم ثم أسلم فى سنة ثمان من الهجرة مع خالد بن الوليد قبل الفتح وقد فرح الرسول عليه الصلاة والسلام باسلامهما كما فرح باسلام عمر بن الخطاب من قبل ويرى بعض المؤرخين أنه لم يسلم إلا بعد أن وثق بأن الاسلام قد تأصلت جذوره فى بلاد العرب وأنه لن يكون مقصورا عليها بل سيتجاوز إلى الدول الأخرى والقائلون بهذا يرمون إلى أن عمرا إنما أسلم طلبا لحسن المكانة فى ظل هذا النظام الجديد الذى رأى بثاقب بصره أنه سيسود ، ولكن حوادث التاريخ تؤيد أن الرجل أخلص للدين الجديد وعرف الرسول فيه ذلك ، فعهد اليه ببعض الأعمال الهامة فولاه قائدا على سرية ذات السلاسل وهى السريه التى كانت تضم بين رجالها ثلاثة من أقطاب المسلمين أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وقد ولاه الرسول أيضا على سرية لهدم سواع صنم هذيل الواقعة على مقربة من مكة ثم ولاه عليه الصلاة والسلام على الصدقة بعمان وبعث بكتاب معه إلى ملكى عمان جيفر وعباد ابنى الجلندا وما زال عمر ومتوليا هذا المنصب الدينى زهاء سنتين حتى قبض رسول الله ﷺ وانتخب أبو بكر خليفة فأقره على عمله ثم كانت الردة فاستدعاه أبو بكر وعقد له لواء لحرب قضاعة الذى كان قد حاربهم فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام فى حادثة ذات السلاسل فأبلى بلاء حسنا وعاد حاملا ألوية النصر ، ثم رده أبو بكر إلى عمله فى عمان وبعد ذلك تخيره قائدا من بين القواد

الأربعة أبو عبيدة ، وعمرو ، ويزيد ابن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة لفتح الشام وفلسطين وتخير لعمرو فلسطين ؛ فسار اليها في تسعة آلاف وخاض غمار عدة معارك فيها ثم اشترك في وقائع اليرموك ودمشق والأردن وتجلت شجاعته في مواقف عدة هناك ، ثم مات أبو بكر وتولى عمر ؛ فأقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالدا إلى أبي عبيدة وأمر عمرا بمعونة جند المسلمين حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها ، وكان انتصاره على أرطبون قائد الروم في معركة اجنادين ذا أثر كبير ثم أخذ يتمم بعد ذلك فتح مدن فلسطين حتى انتهى الأمر إلى حصار بيت المقدس ومجيء الخليفة عمر لاستلامها وإذ ذاك بدأت محاولات عمرو في حمل الخليفة على فتح مصر تلك المحاولات التي فصلنا الكلام عليها تفصيلا في الباب الثالث .

وصف عمر لمصر

ولما تم الفتح الذي وصفناه في الفصول السابقة وبعث عمر بخبره إلى الخليفة يخبره الخبر فرد الخليفة منشطا وسأله أن يصف له مصر فكتب إليه ذلك الكتاب الذي رواه كل المتأخرين ونحن وإن كنا نشك في صحة نسبته إلى عمرو من ناحية الأسلوب إلا أننا لا نجد بدا من إثباته هنا .

ورد إلى كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر

إعلم ياأمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ؛ طولها شهر وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ؛ ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه دبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا مااصلخم عجاجه ، وتعظمت أمواجه فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من قرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كانهم المخايل ورق الأصائل فاذا تكامل فى زيادته ، نقص على عقبيه كأول مابدأ فى جريته ؛ وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ماسعوا فى كدهم ؛ فناله منهم بغير جدهم ، فاذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر ياأمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فاذا هى زمردة خضراء فاذاهى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها ، الا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، والا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها ، فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق فى المبدأ والمال .

قال ابن تغربردى الذى نقلنا عنه هذا الكتاب إن عمر بن الخطاب لما

ورد عليه هذا الكتاب قال لله درك يا بن العاص ، لقد وصفت لى خبرا كأنى أشاهده .

كفالة عمرو للحرية الدينية

أشرنا بعد الكلام على حصن بابليون (ص ٧٦) إلى الأمان الذى أعطاه عمرو للمصريين على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم إذا دفعوا الجزية وما كان من أمر أثر ذلك الأمان فى دولة الروم ونضيف هنا إلى أن الحرية الدينية التى أشار إليها عمرو فى عهده قد أخذت مظهرا قويا فى إعادة بنيامين بطريق القبط ، وقد سبق أن ذكرنا أن بنيامين فر من وجه قيرس واختفى طوال السنوات العشر التى اضطهد فيها قيرس الأقباط ؛ وقلنا إن السعى كان حثيثا غير منقطع وراء بنيامين ولكنهم لم يعثروا عليه إذ كان يهرب متنقلا من دير الى دير فى أنحاء الصعيد وغيره حتى أصبح يخيل الى الناس أن مذهبه قد بات صريعا لا تكاد تهب الحياة فيه مما أصابه من الوطء والعسف والآن وقد تم الفتح وأصبحت مصر تعلو حماية الاسلام عليها جميعا تنفس الناس الصعداء فى عباداتهم ، وعادت الحياة بشكل خاص الى مذهب القبط فى هذا الجو الجديد جو الحرية الدينية وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذى يحق أن يكون مذهب الأمة السائد ولم يكن للمسلمين بطبيعة الحال مصلحة فى مناصرة

حزب دينى على آخر ، فدعى عمرو بن العاص بنيامين الى الظهور فى سنة ٦٤٤ م أى فى العام الثالث للحكم الاسلامى فى مصر ، وقد ذكر ساويرس أن الامان الذى كتبه عمرو كان على هيئة كتاب لاتخصيص فيه وإن الذى دفع عمرا إلى كتابته رجل قبطى اسمه سنوتيوس أوشنوده وكانت صورة الكتاب كما يلى :

أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية وامان وعهد الله فليأت البطريق الى ههنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته ؟ وجاء فى كتاب أبي صالح أن عمرا كتب فى كتابه قوله

فليأت الشيخ والبطريق آمنا على نفسه وعلى القبط الذين فى أرض مصر ، الذين فى سواها لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة الخ ، ويشبه هذا النص فى مجموعة النص السابق ، وقد روى المقريزى أن كتاب عمرو هذا نشر فى الوقت الذى جاء فيه رهبان وادى النطرون إلى عمرو يظهرون له الطاعة لحكم المسلمين إذ قل ؟ إن سبعين الفا من الرهبان خرجوا من تلك الأديرة للقاء عمرو وكان كل منهم يحمل فى يده عصا فلما دانوا له بالطاعة أعطاهم كتابا

يقول بتلر أنه كان عهد أمان ولعله كان العهد الذى نذكره الآن هو عهد بنيامين ، وهو لا يستبعد خروج الرهبان إلى عمرو ولكنه يقول أن عددهم دخلت عليه مبالغة كثيرة على عادة العرب فى أخبارهم ، ويرى أن العدد كان لا يتجاوز السبعين أو السبعمائة على أكثر تقدير

وعلى الرغم من أن مقر بنيامين لم يكن معروفا إلا أن عهد الأمان لم يلبث أن بلغه فعاد من مخبئه ودخل الأسكندرية دخول الظافر بعد غياب دام ثلاثة عشر عاما ؛ عشرة منها وقع فيها الأضطهاد الأكبر ؛ والثلاثة الباقية كانت فى مدة حكم المسلمين ؛ ويرى بتلر أن فى مواصلة اختفاء بنيامين وعدم ظهوره بعد طرد الروم من مصر دليل جديد على أن القبط لم يساعدو العرب ولم يرحبوا بهم ، يروا الخلاص فيهم ، وهو يقول لو صح أن القبط رحبوا بالعرب لكان ذلك عن أمر بطريقهم أو رضائه ولو رضى بنيامين بمثل هذه المساعدة لما بقى فى منفاه ثلاث سنوات بعد استتباب الأمر للعرب ولما عاد بعهد وأمان لا شرط فيه وابلغ شنوده عمرو بن العاص مقدم بنيامين فأمر باحضاره اليه وأكرم مثواه وكان بنيامين ذا هيبة وهيأة تلوح عليه سيما الوقار والجلال ، فأثر منظره ومنطقه الرزين فى نفس عمرو أثرا عميقا ، حتى قال لأصحابه ؟ انى لم أر يوما فى بلد من البلاد التى فتحها الله علينا رجلا مثل هذا بين رجال الدين ، وكانت النتيجة أن عمرا أقره على الولاية الدينية للأقباط فانتعش بذلك مذهب القبط وعاد اليه الكثيرون ممن رضوا بمذهب خلقدونة فرارا من اضطهاد قيرس لهم ، ونحب أن نشير هنا إلى أن هذه الحرية الدينية التى وضع دعائمها عمرو فى أول الحكم الاسلامى بمصر وصار عليها بعض الولاة كانت من الأسباب التى أخرت انتشار الاسلام فى مصر وجعلت سيره بطيئا على عكس ما حدث فى المستعمرات الاسلامية الأخرى كالشام وفارس مما سنعود إلى تفصيله فى موضوع آخر ؛ وقد

ذكر بعض المؤرخين القبط أن البطريق طلب إلى المطارنة الذين اتبعوا مذهب الدولة أن يرجعوا إلى سابق عهدهم وملتهم فعاد عدد كثير منهم يذرفون الدمع ندما ، وأبى فريق العودة حتى لا تعرف عنهم ردتهم الأولى :

ووضع بنيامين مشروعا لاصلاح الكنائس والأديرة القبطية التى هدمت وأهملت فى فترة الاضطرابات السابقة فأقره عمرو على ذلك ، وساعده فى الحصول على المال اللازم لذلك الاصلاح حتى أتمه على ما أراد وقد وصف ساويرس المؤرخ القبطى زيارة بنيامين لدير « مقاريوس » لمباركة الكنيسة التى بنيت فى الصحرا هناك وذكر كيف تلقاه بازل أو باسيلى مطران نيقيوس ورحب به فى موكب حملت فيه بين يديه المباخر وسعف النخيل ، وفى اليوم التالى وهو الثامن من شهر طوبه احتفل بمباركة الكنيسة وألقى بازل كلمة بين يدى البطريق شكر فيها الله على ما أولى البطريق من زيارة الصحراء المباركة مرة ثانية وأن يرى من فيها من الآباء المقدسين والاخوة الطيبين الأبرار ويشهد بها شعائر الدين القويم ثم شكر الله على أن انجاه من الكفرة وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الأكبر الشرير الذى شرده فعاد إلى أبنائه براهم ملتفين حوله مرة أخرى ، قال بتلر ، وليست هذه لغة قوم يشعرون بأنهم فى قيد الذل ولكنها لغة تنم عن الابتهاج بالنجاة والخلاص ، وأورد ساويرس رد بنيامين الذى يقول فيه كنت فى بلدى الاسكندرية فوجدت فيها سلاما وأمنا من الخوف بعد البلاء والاضطهاد الذى صبه

على رءوسنا الكفرة وقد وصف قومه بأنهم فرحوا كما يفرح الاسخال إذا ما حلت لهم قيودهم وأطلقوا ليرتشفوا من لبان أمهاتهم قال بتلر، وقد كتب حنا النيقيوسى بعد الفتح بخمسين عاما وهو لا يتورع بأن يصف الاسلام بأشنع الأوصاف ويتهم من دخل فيه بأشد التهم ولكنه يقول فى عمرو؟ إنه تشدد فى جمع الضرائب التى وقع الاتفاق عليها ولكنه لم يضع يده على شىء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئا من النهب أو الغصب بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة من حياته - ويقول مؤرخ آخر: إنه رأى على جدران المعلقة عهدا كتبه عمرو بن العاص بيده لحماية الكنيسة وهو يلعن من يسعى من المسلمين إلى حرمان القبط منها.

من هذه الأمثلة وغيرها يتضح لنا أن عمرا كفل الحرية الدينية للأقباط كفلانا تاما ولا يجولن بالخاطر أن هذا كان من عمرو تملقا لمذهب الكثرة من الشعب واسترضاء لهم إذ الواقع يؤيد أن عمرا كفل الحرية الدينية لجميع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم فلقد ورد فى الأخبار أن القبط سعوا عند عمرو إلى الايقاع باتباع المذهب الملكاني والاقتصاص منهم جزاء ما لاقوا من العذاب أيام الاضطهاد الأعظم ولكن عمرا لم يمكنهم من هذا ووزع تسامحه على الجميع بالتساوى، وأظل بحمايته اليعاقبة والملكانيين على السواء يؤيد ذلك ما ذكره ساويرس من أن أسقفا ملكانيا بقى على مذهبه حتى مات، بوأن كثيرا من كنائس الملكانيين بقيت إلى ما بعد الفتح بمدة طويلة

ولا تزال إحدى هـذه الكنائس على برج قصر الشمع مكان القبط ومعقلهم إلى يومنا هذا .

ولسنا فى حاجة إلى القول فى أن هذه الحرية الدينية وتلك الحماية التى استظل بها أهل الذمة فى مصر كانت مقيدة فى أول العهد الاسلامى بمصر بقيد واحد هام وهو دفع الجزية

ولسنا الآن فى موضع مناقشة ما طرأ من تغيير فيما بعد ولا ما اتصل بالجزية من شروط أخرى غير أنا نذكر أن دفع الجزية تقيد فيما بعد بنوعين من الشروط ؛ فالنوع الأول من هذه الشروط مايجب لزومه واتباعه فى كل الأحوال ، والنوع الثانى ما يكون لزومه واتباعه مقيدا بحسب شرط العقد إن وجد

وشروط النوع الأول هى :

١ ـ أن لا يعتدى على القرآن وأن لا تحرق مصاحفه

٢ ـ أن لا يقال إن النبى كذاب أو يحقر فى القول .

٣ ـ أن لا يسب دين الاسلام وأن لا يرد عليه بالتكذيب

٤ ـ أن لا يتزوج مسيحى من امرأة مسلمة .

٥ ـ أن لا يغرى مسلم على الارتداد عن الاسلام أو يؤذى فى ماله أو نفسه .

٦ ـ أن لا يساعد أعداء الأسلام وأن لا يكرم أغنياؤهم.

وأما الأمور التى يتبع فيها شط العقد فهى :

١ ـ أن يلبس أهل الذمة لباسا يميزهم ويعقدوا الزنانير على أوساطهم.

٢ ـ أن لا يعلو فى بنيانهم على المسلمين.

٣ ـ أن لا يؤذى المسلمون بقرع نواقيسهم ولا بترتيلهم فى صلاتهم ولا بما يرون فى عقائدهم سواء فى ذلك اليهود أو النصارى.

٤ ـ أن لا يبدوا صلبانهم وأن لا يشربوا الخمر جهارا ولا يظهروا خنازيرهم.

٥ ـ أن تقام مآتمهم بغير احتفال وتدفن موتاهم كذلك

٦ ـ أن يركب أهل الذمة البرازين والخيول المعتادة وأن يتجنبوا ركوب الأصائل

وقد نقل بتلر هذه الشروط عن الماوردى وهو يقول إنه ليس فيها ما لا يقبله العقل ولكنه يشك فى أنها كانت مشترطة عند دفع الجزية فى أول عهد الفتح العربي لمصر

وهذا الذى أوردناه كله يؤيدون مراء أن أهل مصر قد استضاءوا بنور شمس جديدة ظهرت فوق أفق واديهم بظهور المسلمين فى بلادهم وانتقلوا من عهد طال عليهم فيه العسف والظلم والاضطهاد الدينى بحماقة الروم الى عهد من السلام والطمأنينة والحرية الدينية

قال بتلر قد يقال إن حكامهم الجديدين أدخلوا إلى الأرض دينا غير دين المسيح وهذا حق غير أنهم فى ذلك لم يروا إلا عدلا من الله إذ أجمع الناس على قول واحد فقالوا ما خرج الروم من الأرض وانتصر

عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيرس فقد كان هذا سبب ضياع الروم وفتح المسلمين لمصر ؟

والآن قد انتهينا من الكلام عن الاحوال الدينية فى أول عهد الفتح فانا ننتقل إلى الكلام عن مظهر آخر من مظاهر الحكم الاسلامى فى مصر وهو النظام السياسى الذى بدأه عمرو .

٤) ادارة عمرو واصلاحاته

قلنا فى الباب الاول من هذا الكتاب عند الكلام على ادارة مصر فى عهد الرومان ، إن الفتح الروماني لمصر لم يغير من إدارتها الداخلية كثيرا فقد كان من سياسة الرومان إذ ضموا إلى بلادهم مستعمرة جديدة أن لا يغيروا من أنظمتها القديمه إلا بقدر ما يتطلبه الظرف الجديد وأن الفتح الرومانى لمصر لم يغير فيها إلا الأسرة الحاكمة فحسب وسنحاول فى هذا الفصل أن نرى إن كان هذا الذى قررناه يمكن أن يطبق على الفتح العربى أم لا ، ونقدم لكلامنا أن العرب قبل خروجهم الى فتح البلاد وقبل البعثة النبوية لم يكونوا أهل حكومة منظمة ذات ممتلكات تصرف أمورها ، بل أقصى مانستطيع أن نصف به أمهات بلادهم بأنها كانت حكومات مدن أمهما مدينة مكة التى يمكن أن نصفها بأنها كانت جمهورية تجارية بلوتوقراطية

(والمقصود من كلمة بلوتوقراطية أنها حكومة الأغنياء) ويشرف عليها الأعضاء البارزون من بنى قصى .

وتوزع مناصبها العشرة الرئيسية فى اكبر أفراد تلك البيوت وقد ترقى هذا النظام عند ما عم الاسلام شبه جزيرة العرب فى آخر عهد النبى عليه الصلاة والسلام غير انا لا نعتدى على الحقيقة فى قليل أو كثير إذا قلنا أن العرب لم يكونوا إلا أهل تجارة أو حرب وإن فن الحكم وأساليبه شىء لم يحذقه العرب إذا جازلنا أن نقول انهم يعرفوه وأنه لم يكن بينهم نظام سياسى يمكن أن يتخذوه فى مصر أو غيرها أو يدخلوا منه شيئا فى إدارة أمورها ومصر كما نعرف دولة عريقة فى الحضارة والحكومة هيمنت عليها حكومات متعاقبة منذ القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد بين قومية واجنبية لا يهم فى ذلك أن بعض تلك الحكومات كانت ساذجة فى أساليبها ، ونتصف العرب إذ نقول إنهم كانوا أهل ذكاء وفهم سريع ومرونة عقلية عظيمة فكانوا يستطيعون أن يدركو بمنتهى السرعة الظروف التى يوجدون فيها ويعرفوا ما تتطلبه فيسرعون بيد يهتهم إلى انفاذه قال لين بول فى كتابه مصر فى العصور الوسطى ما نصه ؟ يخيل الينا أن العرب لم يحدثوا تغييرات جارفة فى إدارة مصر فقد كانو يمتازون بأنهم شعب يكيف نفسه حسب الظروف ويقنع غالبا بآراء الشعوب الأخرى وقد وجدوا فى مصر نظاما مهيئا فنسجوا على منوال سلفهم الرومان واتبعوا طرائقهم — وهى بلا شك طرائق شكلتها تجاريب الزمن

السابق — بتغيير طفيف وقد ظل هذا النظام قائما بكل عناصره الأصلية إلى القرن الحاضر .

وذكر الأستاذ ميلن فى كتابه المسمى مصر تحت الحكم الرومانى (أن المديرين) أو حكام المقاطعات (والمآمير) أو حكام المراكز (والخولى) أو مفتش الأراضى كان لوظائفهم فى مصر الحديثة نظائرها تماما فى الادارة الرومانية وهو قول نستطيع أن نستنتج منه أن هذا النظام تسلسل من أيام الحكم الروماني مجتازا فترة الفتح العربى وما تلاها إلى وقتنا هذا ولما كانت البلاد فى عهد الرومان مقسمة إداريا إلى خمسة أقسام كبرى هى الاسكندرية ويقيم فيها الحاكم الرومانى وشرق الدلتا ويحكمه دوق ، وغرب الدلتا وتسمى ليبياو يحكمه دوق ومصر الوسطى وتشمل الفيوم وما إليها ويسمى أركاديا ويحكمه دوق كذلك والجزء الباقى إلى الحدود الجنوبية ويسمى طيبه ويحكمه دوق كذلك فان هذا النظام تقريبا ظل قائما مع اختلاف فى الأسماء وبعض الحدود ومع اختلاف أوضح إذ كان الحاكم الرومانى يقيم فى الاسكندرية بينما كان العامل العربى اقيم فى الفسطاط وقد أفرد المقريزى فى الجزء الأول من خططه فصلا ذكر فيه أعمال الديار المصرية وكورها منذ أقدم العصور فارجع اليه لأن المقريزى حجة فى الطبوغرافيا المصرية

وقد ذكرنا بعد كلامنا عن فتح الاسكندرية أن كثيرا من أكابر حكام الروم قد آثروا البقاء فى مصر التى ولدوا فيها ونشأوا بين أحضانها على العودة إلى بلادهم التى لم يروها ولا شك أن عامة الروم تابعوهم فى

ذلك فأما هؤلاء الحكام الذين بقوا فقد أثرهم عمرو بن العاص على وظائفهم فأسفرت عن سياسة حسنة أرادها عمرو أم لم يردها . وأما الوظائف التى خلت بهجرة رؤسائها إلى بلادهم فقد عين عمرو فيها رؤساء من القبط فكاد بذلك يصبح كل موظفوا الدولة من المسيحيين وقد ظلت أسماء الروم وألقابهم باقية فى حكم الاسلام رغم تطاول الزمن وبقى القبط يتابعهم العرب إلى حد ما حتى آخر القرن السابع يسمون المسجل أو السكرتير باسمه الروماني « خارطو لاريوس » ورئيسه باسم « الأيبر خوس أو الأرخون » ومقر الوالى باسم « البروتوريوم » وحاكم الاسكندرية باسم « الأوغسطين » وقد استمر لفظ (دوكس) أى الحاكم مستعملا حتى القرن الثامن بل لقد استعمله ساويرس وهو من كتاب القرن العاشر

وإذا كانت الألفاظ الرومانية قد بقيت فبلا شك أن طرائق الروم فى تدوين دواوينهم قد بقيت أيضا وسنعرض لها فى فصل تالى

وعلاوة على الاعمال الادارية التى أقرها عمرو بعدة اصلاحات هامة فى البلاد وقد أفردنا فى الباب السابق فصولا للفسطاط وجامع عمرو ، وحفر خليج أمير المؤمنين ، ونذكر هنا أن عمرا قام باصلاح مقاييس النيل التى كانت قد تعطلت نذكر منها مقياس أسوان ، ومقياس أرمنت ، ومقياس منف . وكان اصلاح هذه المقاييس ضروريا لمعرفة الفيضان لتحديد الخراج ، وبمناسبة فيضان النيل نرى أن نشير إلى قصة ذكرها معظم المؤرخين المتأخرين تتعلق بما كان يفعله القبط عند

وفاء النيل فقد روى ابن تغربردى أنه لما ولى عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونه من اشهر القبط فقالوا أيها الأمير إن لنيلنا عادة أو سنة لا يجرى إلا بها ذلك أنه إذا كان فى أثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها وأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم القيناها فى هذا النيل فيجوى ، فقال لهم عمرو بن العاص إن هذا لا يكون فى الأسلام وإنه ليهدم ما قبله فأقاموا بؤونه وأبيب ومسرى لا يجرى النيل قليلا ولا كثيرا فهموا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال له قد أصبت أن الأسلام ليهدم ما قبله وقد أرسلنا اليك بطاقة ترميها فى النيل إذا أتاك كتابى فلما ورد الكتاب إلى عمرو فاذا فيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ؛ أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وأن كان الله الواحد القهار الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك ، فعرفهم عمرو بكتاب الخليفة وبالبطاقة قبل يوم عيد الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصالحها إلا فى النيل فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة .

قال جوجى زيدان : فلما رأى المصريون ذلك تعجبوا ووقع فى قلوبهم الرعب وزاد احترامهم للخليفة وأوامره وأبطلوا تلك العادة القبيحة واستبقوا رمزا عنها تمثالا من طين يصنعونه كل سنة عند

فتح الخليج يسمونه العروسة فيلقونه فى الخليج وما زال ذلك جاريا إلى عهد غير بعيد أثرا لما كان يرتكبه المصريون القدماء من العسف فى كل سنة أثناء الفيضان

هذه هى الخرافة التى يحاول بعض المؤرخين أن يتخذ منها حقيقة تاريخية يرجع بها الى عهد الفراعنة واتخذ منها بعض الروائيين موضوعا لقصصهم وهى على الرغم من طرافتها لا تمت الى التاريخ الحقيقى بسند وإذا كنا لم نسمع فى تاريخ الفراعنة بأنهم كانوا يقدمون ضحايا بشرية فالعصر المسيحى بلا شك بريء منها أيضا وإنما ترجع التبعة فيها الى خيال بعض المؤرخين المتأخرين

ومن الاصلاحات التى قام بها عمرو بن العاص فى مصر تنظيمه للقضاء وكانت أمور الناس الى ذلك العهد فى أيدى نواب ماليين أو عسكريين من قبل حكومة الروم يستبدون بالرعية كيف شاءوا وليس من ينصف : قال جورجى زيدان : فأوجد لهم عمرو المجالس النظامية وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية مؤلفة من أعضاء ذوى نزاهة واستقامة ومقام رفيع عند الأهلين ولا يدلنا من ذكر فضل هذا الفاتح لأنه أوجد هذه المحاكم بمصر تحت اسم دواوين ، أما أعضاؤها فينتخبون من الأهالى والأحكام تجرى بمقتضى عدل القضاء وتستأنف عند الأقتضاء لنقدها أو أبرامها ولم تكن أحكام القضاة المسلمين تجرى إلا على المسلمين باعتبار كونهم من جيش الاحتلال ، والقضايا التى فيها أحد الخصمين قبطى كان لنواب

القبط حق الدخول فيها والعمل بمقتضى قوانينهم الدينية والأهلية اهـ:

لقد جعلت هذه التنظيمات وذلك الاصلاح مكانة كبيرة لعمرو فى قلوب القبط فأحبوه كما أحبـــه جنود العرب وتكاتف الكل على مساعدته فى إصلاحاته العظيمة ودانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته وكان يأخـذ من الخراج مالا بد منه لاصلاح البلاد ويأخـذ لنفسه عطاءه ويعطى للجند أعطيتهم ويرسل ما بقى إلى الخليفة .

وسنشرح فى الفصل التالى الحالة المالية فى ولاية عمرو .

(٥) الشئون المالية

ذكرنا عند استعراضنا السريع لتاريخ مصر الرومانية فى أول هذا الكتاب كيف أن الضرائب كانت فاحشة ومتعددة تتنـاول كل شىء فارجع إليها فى « ص ١٥ » وما بعدها ، ونذكر هنا أن عمرا ، إن كان قد حـافظ على طرق الروم فى تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم إلا أنه بلا شك كان أخف منهم وطأة فى جباية الأموال ، وكان مقدار الجزية والضرائب التى اتفق عليها أخف حملا على النـاس وأقل احراجا لهم ، وقد شهد بذلك حتى المتعصبون من المستشرقين الذين يتلقفون الهفوات للمسلمين ، ولا تتفق المراجع الاسلامية على مقدار ما كان يدفـع أولا عند الفتح العربى ، فيذكر المؤرخون أرقاما مختلفة ، ولكن هذا الاختلاف يرجع فى معظمه إلى احصاء أعداد من يفرض عليهم الجزية لأن قدر الجزية التى فرضها العرب على الذكور البالغين كان محددا وهو دينارين

أى ما يبلغ جنيها مصريا بنقود هذه الأيام ، فالخلاف إذاً فى تقدير الجزية إنما كان يرجع إلى عدد من يصح أن تفرض عليه ـ أما مقدارها عن كل فرد فكان ثابتا ـ كذلك كان الخراج على الأرض الزراعية محـــددا إذ كان يبلغ دينارين أيضا عن كل فدان صالح للزراعة ، غير أن هذا الخراج على الأرض لم يكن ثابتا كمقدار الجزية ؛ انما كان يتغير بحسب علو الفيضان أو انخفاضـــه وبحسب حال الزراعة ، وقد روى ابن عبد الحكم أن زعماء الناس فى القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا فى حال الزراعة ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك ، فكانت اجتماعاتهم هذه تقابل فيما يعرف فى أيامنا هذه بلجان تقدير الضرائب ، ويخيل الينا أن الاختلافات الكبيرة التى وقع فيها مؤرخوا العرب ترجع الى الخلط بين جزية الرءوس وخراج الارض ، اذ كان بعضهم يبنى تقديراته على أحدهما دون الآخر ، بينما يجمع آخرون بينهما فيضمون الخراج الى الجزية ويذكرون تقديرهم على هذا الأساس ، ونحن نذكر لك فيما يلى بعض ما أورده هؤلاء المؤرخون

ذكر البلاذرى أن عمرا وضع الخراج على أرض مصر فجعل على كل جريب (الجريب ٣٦٠٠ ذراعا مربعا) دينارا وثلاثة أرادب طعاما وعلى رأس كل حالم دينارين ، وكتب بذلك الى عمر بن الخطاب ـ وذكر فى موضع آخر أن عمرا جبى خراج مصر وجزيتها الفى ألف. وذكر فى موضع ثالث أن عمراً وضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً ، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطى

زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع فى دار الرزق وتقسم فيها وأحصى المسلمون فالزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخفين فى كل عام أو عدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا وكتب عليهم بذلك كتابا إذا وفوا بذلك أن لا تباع نساؤهم ولا أبناؤهم ولا تسبوا وأن تقر أموالهم وكنوزهم فى أيديهم وكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فاجازه - وذكر البلاذرى فى موضع رابع أن أهل الجزية صولحوا فى خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والخل والعسل على دينارين دينارين فالزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه .

وذكر السيوطى نقلا عن ابن عبد الحكم قال : كان عمرو بن العاص لما استوثق له الامراء أقر قبطها على جباية الروم ، فكانت جباياتهم بالتعديل اذا عمرت القرية و كثر أهلها زيد أهلها ، وان قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤساؤها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماياتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فاذا فرغوا نظروا إلى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت

فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت تكون إلا للرجل الشاب أو المتزوج ثم ينظرون فيما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسمونه بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقته فاذا عجز أحد وشكى ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال وان كان منهم من يريدوا الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك اهـ .

وقد أطلنا فى هذا الاقتباس لأنه يصور لنا بصورة شائقة الطريقة التى كانت تتبع فى توزيع الضريبة على الأهالى ومقدار الحرية التى لقيها الناس فى أول عهد الفتح الاسلامى . وقد روى السيوطى فى موضع آخر أن عمرا جبى مصر اثنى عشر الف ألف وجباها المقوقس قبله بسنة عشرين ألف ألف .

وذكر جورجى زيدان فى الجزء الأول من تاريخ التمدن الاسلامى أن مصر لما فتحها المسلمون كان عدد الذكور فيها ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ ثمانية ملايين منهم فى الأسكندرية وحدها ثلاثمائه الف ، فأذا اضفنا الى ذلك عدد الأناث والأطفال والشيوخ زادت جملته على ثلاثين مليونا وهو ثلاثة أضعاف سكانها اليوم (الكتاب مطبوع فى سنة ١٩٠٢ م) هذا ما أخذه جورجى زيدان من كلام مؤرخى العرب ، قال وقد يطعن فى صحة

هذه الرواية ولكن يستدل من مجمل أقوالهم فى مصر أنها كانت فى رغد ورخاء وكان عمر انها بالغاحد النهاية

وأورد موير فى كتابه الخلافة أن ضوءاً كثيراً ألقى على طبيعة الحكم الأسلامى فى مصر وبخاصة فيما يتعلق بنظام الضرائب بعد أن أكتشف الأستاذ بل للبردية اليونانية والمعروضة الآن فى المتحف البريطانى ويستنتج من هذه البردية أنه كانت تحفظ فى كل قرية سجلات فيمن يجوز أن تفرض عليهم الضرائب ، فكان الحاكم فى الفسطاط إذا اراد رجالا أو مالا أو سلعا يبعث إلى كل مقاطعة بالقدر المطلوب منها ومن كل قرية من قراها فكان الموظفون المحليون يجمعون القدر المطلوب من دافعى الضرائب كل بنسبة ما يملكه من أرض أو نخل أو كروم أو شجر سنط أومتاجر وكانت الضرائب العادية تتكون من ضريبة المال وضريبة الغلال ، وكانت ضرائب المال تشمل ضريبة الأرض والجزية ونفقات جمع هذه ، وكانت الجزية تفرض على رؤساء الأسرة فقط ؛ أما ضريبة الأرض فكانت تفرض على الرجال والنساء على السواء ؛ وكانت المساواة تقضى بأن تفرض ضريبة خاصة على أرباب الحرف أما ضريبة الغلال فكانت فى الغالب تتكون من الحنطة وفى بعض الأحيان من الشعير - كذلك كانت تطلب الحكومة من الأشخاص القيام بخدمات شخصية ولم تكن هذه سخرة لأن الذين كانوا يدعون لهذه الخدمة كانوا يتناولون عنها أجورا ، وكانت الحاجة ماسة الى

ملاحين وهؤلاء كانوا يؤخذون من الرجال ذوى الحرف والصناعات المختلفة وكان معظم ما يجمع من الضرائب ينفق على العرب المقيمين فى مصر كذلك كانت تفرض ضرائب غير عادية لبعض اغراض خاصة فكان يطلب من بعض المقاطعات أن تورد عدد من جذوع النخل لأعمال البناء ؛ كذلك كان يفرض على الناس أن يقدموا طعاما وعلوفة لجند العرب اثناء تجوالهم لمدة ثلاثة أيام - ويفرق المؤرخون العرب فى معالجتهم لتاريخ هذه الفترة الأولى بين الخراج والجزية ولكن هذين اللفظين مترادفان تماما وهما يدلان على مقدار الدخل الذى كان يجمع اهـ موير

وذكر الاستاذ لين بول فى كتابه تاريخ مصر فى العصور الوسطى ما نصه ، أشرف عمرو من عاصمته الجديدة الفسطاط على جباية الدخل اللازم فجمع مليون دينار من جزية الرءوس وحدها فى العام الأول ؛ وجمع أربعة ملايين فى العام الثانى ، وثمانية ملايين فى العام الثالث (٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ م) وهو تدرج يشعرنا أن البلاد لم توضع مباشرة تحت الرقابة المالية ، وقد استطاع عمرو أن يرفع دخلا قدره ١٢ مليون دينار من سكان قدرهم ابن عبد الحكم بعدد يتراوح بين ستة وثمانية ملايين خلا النساء والأطفال ، ويرجح أن مفردات الدخل كانت كالآتى ثلاثة مليون دينار من الخراج عن نحو مليون ونصف من الفدادين المزروعة ، وثمانية ملايين جزية رءوس عن أربعة ملايين من

السكان الذكور البالغين ، ومليون دينار من المكوس والضرائب المختلفة .

ثم ناقش فى هامش الكتاب أقوال مؤرخى العرب فقال ؟ من المستحيل أن نوفق بين تقديرات مؤرخى العرب فلقد ذكروا أن عمر اجمع ثمانية مليون دينار من جزية الرءوس وهذا يستلزم أن الذكور الذين يجوز أن تفرض الجزية عليهم كانوا يقدرون بأربعة ملايين نسمه (لاستة ولا ثمانية) ولكن اليعقوبى يذكر ان جزية الرءوس حوالى سنة ٦٧٠ م بلغت خمسة ملايين دينار وهذا يستلزم أن يكون عدد الذكور البالغين مليونين ونصف نسمه أو أن يكون عدد كبير من الاقباط قد اعتنقوا الاسلام ليتخلصوا من الجزية وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين .

أما الخراج أو ضريبة الأرض فقد بلغت فى الجزء الأخير من القرن الثامن نحو أربعة وأربعين مليون درهم (أو ثلاثة ملايين وثلث دينار) وهذا يتسق تماما مع مبلغ الخمسين مليونا التى ربطها عمرو فى معاهدة سنة ٦٠٤ م ، وفى النصف الأول من القرن التاسع زادت ضريبة الأرض الى ما يقرب من أربعة ملايين وثلاثة أرباع مليون دينار وقد ذكر البلاذرى أنه فى آخر القرن الثامن حدد الدخل بمعدل أربعة دنانير عن كل رأس ولكن هذا يجعلنا نعتقد أنه فى تقديره جمع بين الدينارين المفروضين على كل رأس ، والدينارين المفروضين على كل فدان ، اهـ لين بول وختم لين بول كلامه عن الضرائب بقوله

ان سياسة الخليفة كانت تنطوى على حسن معاملة الزراع فلم نسمع بأعمال القسوة ترتكب الا عند ما كان يحاول أثرياء القبط أن يخفوا مواردهم لينجوا من دفع الضرائب، وكانت النتيجة لمباشرة هى المصادرة التى كانت تذكر فيها فى بعض الأحيان ارقاما خرافيه (لا يصدقها العقل) وقد حسن عمرو إنتاج الأراضى بواسطة الرى ، وكان يفرض نظام السخرة . الذى يرجع إلى أقدم عصور التاريخ ، وقد ذكر أنه كان يحتفظ بعدد قدرة مائة وعشرين الف عامل يشتغلون باستمرار صيفا وشتاء فى الجسور والترع والعناية بها وتحسينها وصيانتها اهـ

(لاحظ أن البردية التى أشار اليها مورنذكر أن هؤلاء العمال كانوا يتناولون أجورا)

من كل هـــذه المراجع التى أوردناها ومن غيرها ممن لم نذكره نستطيع أن نستخلص لك المبادىء الآتية فى شئون مصر المالية فى أول الحكم الاسلامى

١) أن الجزية التى فرضها المسلمون كانت بمعدل دينارين عن كل حالم وانه كان يستثنى منها النساء والصبيان والشيوخ وأن عدد الذين كانت تنطبق عليهم هذه الشروط كان يبلغ نحو ستـة مـلايين نسمة وهو عدد يمكن فى شىء من الحذر أن نستنتج منـه أن عدد سـكان مصر أيام الفتح كان يبلغ عشرين مليونا على اعتبار أن ستـة ملايين كانوا يدفعون الجزية وأربعة ملايين من الأطفال والشيوخ لا يدفعون فيكون عدد الذكور عشرة ملايين إذا أضفنا إليهم عشرة ملايين

أخرى للأناث على اختلاف اسنانهم كانت الجملة عشرين مليون نسمة وكانت الجزية فى الغالب ثابتة إلا أن الحاكم كان له الخيار فى أن يرفع جزء منها على الفقراء وأوساط النـاس فيضعه على الأغنيـاء وفى ذلك من العدل ما فيـه .

٢) أن الخراج أو ضريبة الأرض فرض بمعدل دينارين أيضا عن كل فدان صالح للزراعة وان متوسط ما كان يحصل من الخراج كان يبلغ أربعة ملايين دينار وهو رقم نستطيع أن نستنتج منه أن جملة الأراضى الزراعية كانت مليون فدانا وأكثر من ذلك بقليل وإن كان فريق من المؤرخين يرتفع بها الى ثلاثين مليونا وهو رقم لا نميل الى تصديقه ، راجع المقريزى وجورج زيدان وكانت ضريبة الأرض أيضا غير ثابتة إذ كانت نسبتها ترتفع وتنخفض بالنسبة لفيضان النيل

٣) أن العرب سووا فى الضرائب بين النـــاس ، والتزموا جادة العدل ، فلم يعفوا الأسكندرية من الجزية أو الخراج ، وقد كانت فى أيام الرومان معفاه (منع عنها هذا الاعفاء فى السنوت الأخيرة لحكم الروم ولعل هذا من العوامل التى أحنقت أهل الأسكندرية على الفتح العـــربى.

٤) أن هذه الضرائب كان بعضها يجبى ذهبـــا والبعض الآخر يجبى عينا .

٥) أنه كانت هناك بعض ضرائب صغيرة متعددة كتقديم بعض أدوات البناء وغيرها للعرب أو اضافة الجند العرب لمـدة ثلاثة أيام

أثناء تجوالهم ، مما يشبه ما كان يفعله الرومان ولكن مما لا شك فيه أنها كانت أخف وطأة من ضرائب الرومان التى كانت متعددة لا ضابط لمقدارها أو وقت جبايتها .

٦) أن الشعب المصرى كان له رأى فى تحديد قيمة الضرائب ووقت جبايتها وهذا مالم يكن معروفا لدى الرم وقد أفرد الأستاذ مان فصلا طويلا للضرائب فى كتاب مصر تحت الحكم الرومانى ذكر فيه كل أنواع الضرائب المباشرة وغير المباشرة على المصريين التى كانت تبهظ كواهلهم وتجعلهم يفلتون بأنفسهم فرارا من وطأتها وبخاصة ضريبة إيواء الجند الرومانى وطبيعى أن عمرا كان يبعث إلى الخليفة بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه من رواتب للجند والموظفين ونفقات حفر الخلجان وإقامة الجسور وبناء القناطر وغيرها من الأعمال العامة ولا نستطيع فى ضوء ما تحت أيدينا من المراجع الآن أن نحدد مقدار ما كان ينفق على هذه الأشياء ولا مقدار ما كان يرسل إلى المدينة ولا حتى نسبة ذلك إلى الدخل ولكن مما لا شك فيه أن القدر لم يكن واحدا فى كل عام

من هذا الاستعراض للشئون المالية فى أول الفتح العربى نستطيع أن نتبين بجلاء كيف كان عمرو بن العاص حاكما موفقا عادلا ، يرعى جانب الشعب المحكوم لدرجة تعدل إن لم تزد عن رعايته لمصالح الحكام وقد أدت هوادته هذه فى معاملة الاقباط إلى سوء ظن الخليفة به بل وإلى اتهامه كما يتبين ذلك من الرسائل التى تبودلت بين الرجلين والتى سنفرد لها الفصل التالى :

DATE DUE

JAFET LIB.
12 NOV 1991

JAFET LIB.
21 MAY 1993

A.U.B. LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

962:N146tA:c.1
نافع ،محمد مبروك
تاريخ مصر الاسلامية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01059488

962:N146tA
نافع .
تاريخ مصر الاسلامية .

962
N146tA